روايات الجيل الرومانسية



عروس الأحزان

تأليف
مجدي صابر



روايات الجيل الرومانسيَّة ٢١

عروس الأحزان

تأليف
مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

برنامج على الهواء

ألقت « ريم » نظرة أخيرة إلى مرآة حقيبتها الصغيرة.. كان « مكياجها » مضبوطاً دقيقا بتلك الظلال الخفيفة فوق عينيها المستديرتين، واللتين بلون العسل المصفى، كان لون أحمر الشفاه هادئا يناسب وجهها الرقيق، ويبرز شفتيها الممتلئتين وأنفها المسحوب في دقة..

تطلع بصرها في المرآة إلى شعرها القصير المصفف بعناية، وتنهدت في ارتياح.. كان كل شيء يبدو مضبوطا، وباعثاً على الاتزان والوقار، وحتى حليها الصغيرة بدت وكأنها تشارك في ذلك الوقار المفترض في مذيعة تلفزيونية شهيرة، بالرغم من أنها احتفلت بعيد ميلادها الخامس والعشرين منذ أيام قليلة فقط.

وجاءها صوت مخرج البرنامج الأستاذ « جلال كريم » من

خلف الكاميرا يسألها: هل أنت مستعدة لبدء التصوير؟

أومأت «ريم» برأسها إيجابا في رقة، والتفتت إلى ضيفها الكبير، الذي كان قد انتهى من ضبط ربطة عنقه، وبدت ملامحه مستعدة لتلقي قائمة الأسئلة التي ستوجهها له المذيعة الشهيرة..

وهمست «ريم» تسأل ضيفها في رقة: هل أنت جاهز لبدء التصوير يا سيادة الوزير؟

أجابها في ثقة: إنني مستعد تماما.

عادت تقول له: تذكر أننا سنصور على الهواء.. وسيرانا المشاهدون في اللحظة نفسها.

أجابها الوزير مرة أخرى: لقد اعتمدت مواجهة الناس دائماً بصراحة تامة، فليس لدي ما أخفيه.

التفتت «ريم» إلى المخرج قائلة: نحن جاهزون للتصوير.

وصاح المخرج في العاملين بالاستوديو: سوف نصور حالاً. وتأهب الجميع لبدء التصوير..

وعندما أعطى المخرج الإشارة لـ «ريم» ببدء دوران الكاميرا، كانت في أتم حالات الاستعداد، وواجهت المشاهدين

بابتسامتها الرقيقة وصوتها العذب قائلة: مرحبا بكم سيداتي وسادتي في برنامجنا الأسبوعي «استجواب على الهواء»، ومعنا الآن السيد وزير المالية الذي أبدى مشكورا استعداده التام للإجابة على كل أسئلة البرنامج فمرحبا به.

واستدارت إلى الوزير لترحب به، قبل أن تبدأ في طرح الأسئلة عليه..

كان لها أسلوب مميز في الحوار وإدارة دفة الحديث.. ومباغتة الضيف بأسئلة غير متوقعة.. كما كانت ثقتها وثقافتها وجمالها الهادئ سببا في شعبيتها الجارفة.

لم يكن أحد يتصور في مبنى التليفزيون بأكمله أن تلك الفتاة الرقيقة الأنيقة يمكن أن تصبح اشهر مذيعة ومحاورة تليفزيونية خلال عامين فقط من بداية عملها.. ولكنها أثبتت من النجاح والقدرة ما جعل مدير التليفزيون يسند إليها أصعب البرامج وأكثرها جماهيرية..

وكان من العجيب أنها خلال عامين فقط.. اختيرت أحسن مذيعة تليفزيونية.. مرتين، مما جعل لها الكثير من المعجبين.. والكثير أيضاً من الحساد والكارهين!

وقد أثبتت «ريم» براعتها تلك المرة ككل مرة.. حتى ان الوزير بدأ يزحزح قليلاً ربطة عنقه، ويمسح بضع حبات من العرق تسللت إلى جبهته عندما لا تكون الكاميرا مسلطة عليه.

وهمس أحد المصورين لزميله بإعجاب: لا أدري من أين تأتي «ريم» بهذه الأسئلة التي توجهها لضيوفها.. إنها دائما تتركهم في حالة من التوتر والارتباك مهما كان استعداد الضيف المسبق وثقته بنفسه.. والعجيب أن أي شخص توجه له الدعوة ليكون ضيف البرنامج، فإنه يلبيها على الفور، بالرغم من الاستجواب القاسي الذي سيتعرض له!

همس زميله مجيباً: إن «ريم» مذيعة رائعة.. وثق أنها ستصير مديرة للتلفزيون في وقت قياسي.. فالجميع يتسابقون ليكونوا ضيوف برامجها، بسبب شعبيتها الكبيرة.

وانتهى البرنامج أخيرا..

وتنفس الوزير في ارتياح، وغمغم لـ«ريم» قائلا بابتسامة عريضة: كان هذا هو أصعب استجواب مررت به في حياتي، على كثرة ما واجهت من أسئلة محرجة من الصحفيين وحتى من نواب البرلمان!

أجابته « ريم » بابتسامة رقيقة:

ـ هذه هي الضريبة التي تقدمها الشخصية العامة يا سيادة الوزير.. فنحن جميعا نعمل لخدمة الشعب.. ومن حقه أن نجيب على كل تساؤلاته، فبهذا فقط نكون جديرين بمناصبنا ونثبت استحقاقنا لها.

غمغم الوزير وهو يعدل من ربطة عنقه:

ـ أنت على حق..

ونهض الوزير مصافحا « ريم » وهو يقول لها: سيسعدني اتصالك بمكتبي في اي لحظة.. واستضافتك لي في اي برنامج آخر مهما كان قدر انشغالي.

أحست « ريم » ببعض الخجل، كان ما قاله الوزير شهادة ثقة بها وببرنامجها، فأجابته بوجه متورد: سأكون سعيدة بذلك.

وغادر الوزير المكان وخلفه عدد من مساعديه، فاقترب المخرج من « ريم » قائلا بابتسامة عريضة: لست أدري كيف تقنعين ضيوف برامجك المهمين بالحضور برغم مشاغلهم العديدة.. فقد حاولت في برنامج آخر دعوة الوزير بالذات أكثر من عشر مرات دون فائدة.

رفعت «ريم» حاجبيها الرقيقين المزججين بعناية قائلة بابتسامة عريضة:

ـ هذا ما يسمونه سر المهنة.. وسحرها أيضا.

وبدا الارهاق واضحاً على وجهها.. كانت دائما تبدو في قمة تيقظها وانتباهها في أثناء عملها.. ولكن ما أن ينتهي التصوير حتى يغزوها إحساس عميق بالإرهاق والرغبة في الراحة. كأنها زهرة عباد شمس تتفتح أوراقها امام شمس أضواء كاميرات التصوير، وما أن تغمض تلك الكاميرات عيونها، حتى تطوي أوراقها، وتبدو كما لو كانت موشكة على سبات عميق.

ولكن، كان ثمة عمل عاجل لا يحتمل التأخير في فض رسائل القراء وإجراء بعض الاتصالات الهاتفية للاتفاق مع بعض ضيوف البرنامج لحلقات قادمة.

وأخيراً انتهى العمل الشاق فلملمت أوراقها وتناولت حقيبتها، وفي صوت يحمل رنة تعب قالت للمخرج: إنني مضطرة للانصراف الآن يا أستاذ «جلال».. فأنا أشعر كأنني لم أتذوق النوم من أسبوع كامل، وفي حاجة إلى رقاد طويل.

تأملها الأستاذ «جلال» وقد أطبق شفتيه فوق غليونه، ثم أطلق نفسا عميقا ممتزجا بدخان «البايب» وهو يقول لها:

إنك في حاجة إلى إجازة قصيرة بالفعل، فقد أجهدت نفسك في الأيام الأخيرة.

وقطب حاجبيه مضيفا باهتمام: نسيت أن أخبرك باتصال والدك قبل التصوير هاتفيا وهو يقول إنه يريدك في أمر مهم، لكنني لم أشأ أن أخبرك بذلك لئلا يسبب لك أي توتر خلال البرنامج.

القت «ريم» نظرة على ساعتها وتعقد حاجباها ببعض القلق وغمغمت: لقد نسيت الموعد.. كان المفروض أن أعود للمنزل بعد التصوير مباشرة منذ أكثر من ساعتين!

تساءل المخرج بفضول: أي موعد؟

ولكنه لم يحظ بأي إجابة، وأسرعت «ريم» مغادرة حجرتها على عجل.. وراقبتها زميلتها «فريدة» بتقطيبة حادة، عكست مشاعرها نحوها..

كانت «فريدة» هي نجمة برنامج التليفزيون ومحاورته

اللبقة، ولكن ذلك كان قبل بزوغ نجم «ريم»، الذي بشر بأفول نجوم ونجمات.

وغادر المخرج مكتبه، وهو يقطع الممشى بخطوات عريضة غارقا في أفكاره.. كان يشعر بالسرور البالغ، فجزء من نجاح البرنامج كان ينسب له دون شك. كانت عينه الفاحصة هي التي التقطت «ريم» عند التحاقها بالتليفزيون، وبخبرته أدرك ما تملكه من ثقافة وجرأة أمام الكاميرا، فنقلها من برامج المنوعات إلى برامج التحقيقات المهمة وها هي ترى نظرته قد أثبتت نجاحها وصعد نجم «ريم» بسرعة البرق.. ليبقى اسمه ايضا في دائرة الاضواء بالرغم من تجاوزه الستين من عمره.

كان قبلها يفكر في الاعتزال والتوقف عن العمل.. يشعر أن شمسه توشك على الغروب.. وأن ليل حياته قد انتصف حيث ينتظره ظلام طويل حالك.

وأشرقت شمس «جلال» بدخول «ريم» حياته لتبدد حلكة مشاعره وظلامها.

صارت هي ملهمته ومنقذته من وحدته الطويلة الأليمة.. لم يكن ثمة أمل أن تشعر بأحاسيسه تجاهها.. فالخريف والربيع

لا يلتقيان ابدا.. ولهذا قنع أن يكون قريبا منها فقط.. يحنو عليها كأب.. ويبعد عنها دسائس الحاسدين والحاسدات..

كان يكفيه أن تغير شمسها صقيع مشاعره فتبعث فيها قليلا من الدفء.. والحياة. وافاق على صوت «فريدة شاكر».. مقدمة البرامج الأولى.. او هذا ما كانته قبل أن تحتل «ريم» مكانتها المميزة في قلوب المشاهدين.. كانت «فريدة» تغمغم في صمت.. وكأنها تحدث نفسها:

لا أدري لماذا لا تمكث هذه الفتاة في «فيلا» أبيها الفاخرة.. إن والدها يمتلك الملايين وكل شيء في حياتها سهل ميسر، وهي ليست في حاجة للعمل أو الشهرة أو المال، فلماذا تغتصبها ممن هم في حاجة إليها.

رمقها الأستاذ «جلال» بنظرة صامتة.. كان يدرك مقدار الغيرة التي تشعر بها «فريدة» وكثيرات نحو «ريم».

وأحس بالإشفاق على «فريدة» في تلك اللحظة.. إشفاق لا مزيد عليه.. وقد بدت بوجهها المصبوغ بألوان كثيرة وعدسات عينيها الملونة وحليها الصاخبة، كنموذج حي ليأس الفرصة الضائعة.

تخطت «فريدة» الخامسة والأربعين من عمرها.. كانت مثله وحيدة وقد سرق العمل سنين طويلة من حياتها..

كأنها عجوز شاخت سريعا.. وتضاعف سنها ببزوغ نجم «ريم».

وغمغم يقول لها: لقد تأخر الوقت.. يحسن بك العودة لمنزلك

فعضت «فريدة» فوق شفتها وهي تجيبه: وماذا أفعل في المنزل.. ولا زوج ينتظرني أو ابن يهفو إلي؟

ولمح الدموع في عينيها..

ولكنها الحياة.. فدوام الحال من المحال.. وليس أسوأ وأشد إيلاماً من مشاعر امرأة وحيدة حزينة بلا مستقبل.. وقد ولى سن الشباب والحماس والفرصة القادمة!

* * *

الصدام

قادت «ريم» سيارتها بسرعة وهي تلقي نظرة على ساعة يدها. كانت عقارب الساعة توشك أن تعانق منتصف الليل..

تأخرت كثيرا عن موعدها.. وعدت أباها بالحضور مبكرا ولولا ذلك ما اهتمت بالأمر كله..

لم ترتح كثيرا للطريقة التي دبرت بها والدتها الامر كله كما ذهلت من قبل أكثر من مرة.. كانت ترفض أن يرغمها أحد على امر ما.. ولكن والدها قال ليحسم الخلاف: لن يكون عليك سوى الحضور، ثم تقررين بنفسك، ولن يجبرك أحد على اتخاذ القرار.

وعلى هذا الأساس وافقت هذه المرة.. كما وافقت في مرات سابقة، وهي تعلم أنها تقبض على الأمور بيديها وأن أحدا لن يرغمها على شيء..

ولكنها تأخرت كثيرا.. فهل يطول الانتظار بضيوفها حتى هذا الوقت؟

وفاجأها صف من السيارات ارتص أمامها فوق كوبري (٦ اكتوبر) أعاقها عن المرور، فألقت نظرة للأمام من نافذة باب سيارتها الفاخرة تستطلع الأمر..

لم تكن هناك حادثة ما ولا أي سبب لتعطيل المرور.. ولكنها لمحت إلى اقصى اليسار سيارة شرطة مرتكنة وامامها بعض الجنود المسلحين، وأحد الضباط وقد راح يتطلع إلى ركاب إحدى السيارات ويتفحص أوراقهم. وأصابتها السعادة وهي تشاهد ركاب السيارات التي ارتصت حولها وخلفها، وهم يشيرون إليها ويتهامسون.. كانت شخصية شهيرة وكان عليها أن تخضع لقانون الشهرة، فرمقت الناظرين إليها بابتسامة عريضة، برغم ما تشعر به من إرهاق بالغ.

ولكن سرعان ما أصابها الملل وهي تفقد الدقائق سريعا في جلستها.. وتحولت ابتسامتها إلى تقطيبة كبيرة تجمع فوقها تعب ومشقة اليوم كله. وتحولت تقطيبتها إلى غضب حبيس..

كانت نادرا ما تغضب وتثور.. ولكن عندما كانت تأتي هذه اللحظات النادرة، يتحول غضبها إلى شلال هادر كاسح لا يُبقي في طريقه على شيء.. مثل شمس الصباح الرقيقة الخجول، التي قد تتحول إلى شواظ من نار في غمضة عين.. لا يستطيع إنسان تحمل لهيبها.. أو كسحابة خريفية ندية، تتحول في ثوان خاطفة إلى عاصفة هوجاء تقذف بشلال من المطر والبرد بلا رحمة.

وتحرك طابور السيارات ببطء شديد.. وأشارت عقارب الساعة في يدها إلى منتصف الليل بالضبط..

وبدأت سحابات الغضب تتجمع أمام عينيها رغما عنها وكأنها تبحث عن وسيلة لإطلاق حممها..

ودون وعي أطبقت أصابعها على نفير السيارة وهي تضغطه بكل قوتها..

وعلا صوت النفير عاليا صاخبا.. وفي الحال تطلعت إليها كل العيون وراحت ترقبها بتساؤل وفضول..

ورمقها أحد الضباط في أول صف السيارات بتقطيبة حادة وقد أغضبه صوت النفير الصارخ.. ثم تحرك تجاهها.. وفي

خطوات سريعة رياضية قطع المسافة القصيرة وحدق فيها لحظة كأنه يحاول قراءة ما يجول في أعماقها.

كان في زيه الرسمي يبدو عملاقا فارع الطول.. تزيده نظرات عينيه الجريئتين وسامة وقوة.. ويؤكد أنفه المستقيم قوة شخصيته التي تبرزها النجوم الثلاث المتألقة فوق كتفه، دلالة على السلطة ومظهرا لها.

لم يكن وسيما تماما بوجهه الذي لوحته الشمس وشعره القصير أسفل قبعته الرسمية، وتلك الخطوط أسفل عينيه التي تكشف عن إرهاق عمل شاق خطر تؤكده تلك الندبة بأعلى جبهته. وواجهته «ريم» بنظرة يتراقص فيها الغضب وهي لا تزال تضغط بأصابعها فوق نفير سيارتها.

وفي صوت خشن قال لها: لماذا تطلقين النفير بمثل هذه الطريقة؟

رفعت «ريم» أصابعها عن النفير وأجابته ساخرة: هل يخفى السبب عنك حقا..؟

ظننت أنك ستلاحظ أن هناك حفلا راقصا أشارك فيه بأكبر قدر من الصخب.

وانفجرت في غضب أشد صائحة: هل تسمح وتخبرني لماذا تعطل المرور بجنودك وتمنع تحرك السيارات في مثل هذا الوقت المتأخر؟

أجابها هادئا: لا أظن أنه يخفى عليك أنني أمارس عملي كضابط شرطة، وهذا ما أفعله في هذه اللحظة بالضبط.

زمت «ريم» على شفتيها في حركة ساخرة، وهتفت تقول:

ـ أحقا.. وعن ماذا تبحث يا ترى بين الركاب.. عن مجرم هارب أم عن مهربي مخدرات اختاروا هذا المكان والوقت بالذات ليمارسوا نشاطهم؟

رمقها الضابط بنظرة هادئة صامتة أودعها كل قدرته على التحكم في مشاعره، ومد كف يده اليمنى صوبها قائلا: هل يمكنك أن تريني رخصة قيادتك وسيارتك؟

تلاعبت ابتسامة قاسية فوق شفتي ريم، وهتفت بسخرية أشد:

ـ ماذا.. هل تريد أن تحرر لي مخالفة.. أم تريد أن تتأكد إن كنت أقود سيارة مسروقة؟

ولكنه واجهها في هدوء دون ان يفقد أعصابه مكرراً:

ـ رخصتك من فضلك.

ولم تستطع « ريم » التحكم في مشاعرها أكثر من ذلك، كان ذلك الضابط يبدو جادا في طلبه، صاحت به بغضب مشتعل:

ـ ماذا تقول.. ألا تعرف مع من تتحدث.. ألا تدري من أنا؟

ولم يفقد هو هدوءه واتزانه، وأجابها في صوت بارد:

ـ حقيقة لا أعرف ولا يهمني أن أعرف من تكونين.. أنت كغيرك سواء أمام القانون.. والآن أعطني رخصتك أو سأضطر إلى اتخاذ إجراء يخوله لي القانون ويعطيني الحق فيه مهما كنت!

ارتجفت « ريم » لشدة الغضب.. كانت ملامح ضابط الشرطة الصارمة أمامها تؤكد أنه لا يعرف من تكون ولا يهمه حقا من تكون.. ووشت نظراته المقطبة القاسية وشفتاه المزمومتان بقوة أنه قد ينفذ تهديده حقا.. وربما يأمر جنوده بإلقاء القبض عليها، وهي كانت قادرة على عقابه وأن تثبت له من تكون باتصال هاتفي مع رؤسائه، ولكن كان سيستغرق وقتا بكل تأكيد.. ولم يكن الوقت في صالحها.. في تلك اللحظة على

الأقل!كـان هو المتـحكـم في الموقف تماما، وكـانـت «ريم» تدرك ذلك دون شك!

وفي عـصـبـية بالغـة امتـدت يدها لتـفـتح تابلوه السـيـارة، وتقـذف برخـصـة قـيـادتهـا والسـيـارة في يد ضـابط الشـرطة وصاحت به: لن يمر هذا الأمر بسـهولة وأؤكد لك.. وسأتصل بالوزير شخصيا لينقلك إلى اقصى الصعيد عقابا لك، ولعلك عندمـا تلقي نظرة إلى اسـمي ومـهنتي وتعـرف من أكـون، ستتأكد من الخطأ الذي ارتكبته معي.

في هدوء أجابها الضابط:

ـ لقـد سحبت رخـصـة قـيـادتك يا سـيـدتي.. وإذا تفـوهت بلفظ واحد آخر فربما أحرر لك محضرا بتهمة سب ضابط شرطة والتعدي عليه بالقول أثناء تأدية وظيفته.

اثارها ما قاله أكثر، وعربد الغضب عنيفا في وجهها، وقالت له:

ـ سترى من منا سينفذ تهديده.

وجـذبت أصـوات المشـادة أنظار الفـضـوليين فـتطلعـوا إلى الاثنين في فضول ودهشة.. وتحركت بعض السيارات إلى الأمام

فانفسح الطريق أمام «ريم»، فالتفتت إلى ضابط الشرطة الذي راح يدون شيئا في مفكرة صغيرة معه، وصاحت به وكلماتها تفور وتغلي غضبا: قبل أن تنهي عملك الليلة أؤكد لك، أنك ستكون قد نقلت إلى اقاصي البلاد، حتى تتعلم كيف تتحدث مع المواطنين بطريقة مهذبة، ولكن لا يغرك زيك الرسمي مرة أخرى، وبالتعالي على الآخرين!

وحركت ناقل السيارة ثم ضغطت فوق دواسة البنزين، فانطلقت السيارة الفاخرة براكبتها وعجلاتها تزأر فوق الطريق، كأنها وحش حبيس حطم قيوده وانطلق إلى العالم العريض.

ووقف ضابط الشرطة مكانه لحظة يتابع السيارة التي غابت عن عينيه بسرعة.. وألقى نظرة على اسم صاحبتها في الرخصة التي تركتها له دون اهتمام. كان اسمها «ريم الشرقاوي». وكانت مهنتها مذيعة بالتليفزيون.

كان الاسم لا يعني له شيئا على الاطلاق.. ولا حتى المهنة كذلك.

وفي هدوء راح يحرر لها مخالفة بتجاوز السرعة المقررة فوق الكباري العامة وأخرى باستعمال النفير دون داع لذلك!

اجتازت السيارة سور الحديقة العريضة المزدانة بالأضواء الملونة، والتي امتلأت بأشجار الزينة، ووصلت الى بوابة « الفيلا » الأنيقة الفاخرة.. فهرع إليها الحارس، ووقف إلى جوارها في أدب جم، ومدت له « ريم » مفاتيح سيارتها في تقطيب قائلة: ضع السيارة بالكراج..

وغادرت سيارتها واتجهت داخلة إلى « الفيلا » وهي تحاول أن تتغلب على إحساسها بالغضب..

كانت المرة الأولى التي يعاملها إنسان بمثل تلك الطريقة.. وهي قد اقسمت على عقاب ذلك الضابط، ولن تتراجع لأي سبب.

واستقبلتها والدتها في مدخل « الفيلا » وهي تحاول كبت غضبها، وهمست في احتجاج لابنتها: كيف تتركين ضيوفك ينتظرونك كل هذا الوقت، هل تهزئين بهم وتعلنين رفضك مقدما؟

أجابتها « ريم » في بعض الضيق: أرجوك يا أمي.. إنني في تمام الإرهاق ولا تتحمل أعصابي أي لوم.

وخطت داخلة إلى « هول » « الفيلا » العريض ووالدتها تتابعها بعينيها وهي تحاول التحكم في مشاعرها أمام ضيوفها.

وهب والدها واقفا وفي عينيه نظرة عتاب ولوم لم تتحملها فهربت ببصرها بعيداً.. وكانت نظرة واحدة عاتبة من أبيها كفيلة بأن تجعل الحزن يسكن قلبها دهراً.. كانت تتحمل كل شيء إلا غضب والدها عليها..

كان هو شاطئ الأمان بالنسبة لها.. ومرفأ راحتها وسعادتها.. ووقع بصرها على رجل في حوالي الستين بالغ الأناقة وإلى جواره إمرأة بدا أنها زوجته بلا شك، وقد تحلت ببعض المجوهرات الثمينة.. التي تساوي ثروة. ونهض الاثنان عند رؤيتها وفي عيونهما نظرة ترحيب.

وفي صوت رقيق همست «ريم» تقول: إنني اعتذر عن التأخير فقد كان رغما عني.

فقال الرجل الأنيق مخففا من حدة الموقف: لا بأس يا ابنتي.. فكلنا ندرك أهمية عملك ومشاغلك.

وقالت زوجته: لقد كنت رائعة.. شاهدناك على الهواء وأنت تحاورين سيادة الوزير.. فأعجبنا بك أشد الإعجاب.

قال والدها: أقدم لك «كمال سعيد بك».. رجل الأعمال المعروف وزوجته «كريمان» هانم صديقة والدتك.

ـ أهلا بكما.

ومدت «ريم» يدها مصافحة عندما وقع بصرها على ذلك الشاب البالغ الوسامة في حلته الأنيقة جدا وشعره المصفف بعناية بالغة والملتمع بشدة.

وقال «كمال» مشيرا للشاب الأنيق في فخر: أقدم لك ابني الوحيد سامح.

مد «سامح» يده مصافحا.. كانت أصابعه ناعمة منمقة كأيدي النساء وتهتز في معصمه ساعة ذهبية فاخرة والتقت عينا «ريم» بعينيه. كانت عيناه واسعتين شديدتي السواد، وقد بدتا لشدة اتساعهما كأنهما مكحولتان، تسكنهما جرأة غير عادية.. كأنهما عينا طاووس غارق في عشقه لذاته.

وجلست «ريم» صامتة وقد عاودها إحساسها بالإرهاق والتعب، كانت تتمنى لو أغمضت عينيها وغابت في نوم عميق يمتص مشاق يوم طويل.

وقالت «كريمان» بابتسامة عريضة لـ «ريم» لتخرجها من شرودها: إنك تبدين أجمل كثيرا في الحقيقة عن صورك وعن مشاهدتك في التليفزيون، ولم أكن أدري أن لـ «الشرقاوي

بك » والدك ابنة بهــذا الجــمــال، بالرغم من أنني ووالدتك صديقتان منذ شهور في ناد واحد.

أجابتها « ريم » في هدوء: إن والدي يفتخر دائما بعقلي.. لا بجمالي.. شحب وجه « كريمان » لحظة، ثم قالت بسرعة: إنك تبدين كاملة الصفات.. جمالاً وعقلاً..

وأقبلت والدة « ريم » وخلفها خادم يجر عربة صغيرة رصت فوقها أطباق الحلوى والشاي، وقالت الأم باسمة: نحن آسفون.. فقد اضطررنا لتأجيل الحلوى بعد العشاء لحين حضور « ريم ».

تناول الجالسون أطباقهم.. ومد « سامح » طبقا إلى « ريم » فاعتذرت قائلة: إنني أسفة لأنني لا أتناول الحلوى بسبب الريجيم.

قال « كمال بك » عاقدا ما بين حاجبيه وهو يلتهم قطعة حلوى كبيرة: بل أعتقد أنك في أشد الحاجة الى التهام اي قدر من الحلوى، ليزداد وزنك قليلاً، فالرجل يفضل دائما المرأة الممتلئة.

زاد ضيق « ريم » ولم تنطق.. وشعرت كأنها سجينة قضبان حديدية توشك أن تزهق أنفاسها.

وأفاقت على صوت « سامح » وهو يقول: إن طريقتك في محاورة ضيوفك رائعة.. وكذلك أسئلتك لهم.. حتى أنني أريد أن أوجه كلمة إعجاب لمعد هذه الأسئلة. أجابته بصوت حاولت أن يبدو هادئا قدر استطاعتها:

- إنني أعدها بنفسي.

رمقها « سامح » بنظرة من عينيه الواسعتين تعمد أن يودعهما كل جاذبيته وهو يقول:

- رائع.. شيء لايصدق.. أن تكوني بمثل هذا الحسن.. والذكاء أيضاً.. وضاقت عيناه وهو يضيف: ولكني أشفق عليك حقيقة، فطبيعة عملك شاقة جداً، وهي تتطلب العمل حتى وقت متأخر جدا، وهو أمر لا يناسب فتاة رائعة الجمال مثلك.

تجاهلت « ريم » كلمات المديح وأجابته في تقطيب ظاهر:

- هذا هو عملي وأنا أحبه.. ليس لدي استعداد لأن أتركه لأي سبب.

أحس « كمال » بالمأزق الذي ينجرف إليه الحوار، فهتف بسرعة: بالطبع إن « سامح » ابني لم يقصد أن يقول بأنه

يريدك أن تتركي العمل.. ولكنك قد تفعلين ذلك بإرادتك بعد الزواج.

واجهته «ريم» بنظرة مقطبة حادة فأكمل الرجل ببعض الارتباك: هذا إن كان هناك نصيب في ارتباطكما بإذن الله.

وفرك «كمال بك» كفيه بابتهاج صريح وهو يقول لـ «ريم»: إن لديَّ صفقة متعثرة في الجمارك لبعض البضائع غير المسموح باستيرادها.. وقد حادثت والدك بشأن توسطك لدى أحد المسؤولين الكبار لكي يأمر بالإفراج عنها، فكلنا نعلم حجم اتصالاتك وخاصة أن ضيف برنامجك اليوم كان هو وزير المالية و..

قاطعته «ريم» بجمود: إن والدي يعرف أنني أرفض هذا الأمر تماماً، ولا استغل عملي في التوسط لأي إنسان.

ولكن «كمال بك» بدا ممن لايتراجعون أمام الرفض المهذب، وواصل بابتسامة أكبر:

ـ لقد أخبرني والدك بذلك، ولكني أنتهز الفرصة الآن وأطلب ذلك منك بنفسي، فسوف أخسر أكثر من ربع مليون جنيه في هذه الصفقة إن لم يسمحوا بدخولها، كما أننا سنصير عائلة واحدة و..

قاطعته «ريم» مرة أخرى وقد نفد صبرها قائلة: أرجوك يا «كمال بك».. هذا هو مبدئي ولا أحيد عنه أبدا مهما كانت الأسباب.

ترامق «كمال» وزوجته التي تكدرت ملامحها.. ثم تطلع الى والد «ريم» الذي مط شفتيه كأنه يؤكد لضيفه أنه كان عليه الاستماع لنصيحته منذ البداية!

ولم ينطق «سـامح» بشيء، وراح يرمق «ريم» بنظرات عميقة، كأنه يحاول قراءة ما يجول في رأسها، وقد بدت في عينيه نموذجا غير معتاد في كل من قابلهن من حسناوات.

وقالت والدة «ريم»: لقد ربينا ابنتنا على الاخلاق الحميدة.. وإن كان هذا لا يمنع من خدمة الاصدقاء والاقارب.. ولا أظن ان «ريم» ستمانع في ذلك، بعد ان تتوثق علاقتنا معا أكثر.

لم تنطق «ريم» وزاد تقطيبها حتى لا تسبب أي إحراج لوالدتها.

وتنهدت «كريمان» في ارتياح، كأنها تلقت إشارة الموافقة من والدة العروس، فقالت لـ«ريم»: إن «سامح» هو إبننا الوحيد وقد أتم دراسة الهندسة في الخارج، ثم عاد إلى مصر بعد

حصوله على الماجستير، ليساعد والده في مشاريعه.. و« كمال بك» يؤهله الآن ليدير كل شيء بعد وقت قصير.

أدارت « ريم » وجهها صوب « سامح » وسألته:

ـ ولماذا فضلت الحصول على شهادتك من الخارج؟

ـ هذا لأن الشهادات الجامعية في مصر لا تعجبني.. ويحصل عليها كل من هبَّ ودبَّ، ممن كان يفترض أن يمتهنوا أعمالا يدوية، لا أن يحملوا شهادات عالية.

واجهته « ريم » بغضب صريح وصوت حاد قائلة:

ـ لا اظنك كنت ستقول ذلك، لو لم يكن والدك يمتلك ما ينفقه على تعليمك بالخارج.. فأنا شخصيا رفضت الفكرة وتعلمت في وطني.. ولا أظنك تشك في قيمة الشهادة التي حصلت عليها.

شحب وجه « سامح »، وغمغم بارتباك: إنني آسف.. لم أكن أقصد.

في تلك اللحظة طاف وجه ضابط الشرطة الصارم الملامح بعيني « ريم »، وأحست بغضبها يتجدد، وكان ذلك لسوء حظ ذلك الشاب المتأنق الجالس امامها، ويثير أعصابها بصورة لا

يتخيلها إنسان فواجهته ثانية بقسوة: لست أميل الى الرجل الذي يبادر بالاعتذار الفوري، قبل ان يشرح وجهة نظره كاملة.

فهذا ما اعتبره هروبا وضعفاً في الشخصية لا أقبله!

ونهضت واقفة وهي تقول: إنني آسفة ولكنني مضطرة للاستئذان منكم، فإنني مرهقة جدا وأرغب في الحصول على بعض الراحة.

وغادرت المكان قبل أن تسمع ردا ما.. وتواجه الوجوه التي فاجأتها العبارة القاسية.

وتجهم وجه والدتها وتطلعت إلى زوجها في تقطيب حاد، كأنها تلومه، بأن كثرة تدليله لابنتها أفسدها!

وتطلع «كمال بك» إلى زوجته بوجه شاحب وقد راحت أصابع الزوجة ترتعد بصورة واضحة وبدأ الغضب على وجه «سامح» كأنه تلقى إهانة لا تحتمل، وهب واقفاً وهو يقول لـ«الشرقاوي»: لا أظن أنّه يليق بابنتك يا سيدي أن تفعل ذلك بضيوفها الذين انتظروها حتى منتصف الليل، ثم تهينهم بكلمات جارحة دون ان تترك لهم حتى فرصة الدفاع عن أنفسهم.

قالت الام بسرعة: إن «ريم» لا تقصد و..

قاطعتها «كريمان» قائلة: من الواضح ان حديثنا لم يرق لابنتك ولهذا نعتذر لكم وكان من الواجب أن تخبرونا أنها لا ترغب في الزواج، بدلا من إهانتها لابني بمثل هذه الطريقة.

وخطت نحو باب «الفيلا» يتبعها ابنها وقد بدا كطاووس غاضب مهتاج، وغمغم «سامح» لوالدته في صوت تعمد أن يكون مسموعا للآخرين:

من تظن نفسها.. هناك من هي أجمل منها ألف مرة وأكثر ثراء، تتمنى الزواج مني.. هذا بالاضافة إلى أنها ترفض ترك عملها بعد الزواج، كما أنها تبدو عدوانية ومولعة بالشجار والعراك لمن سيتزوجها!

وانتحى «كمال» ركنا بـ«الشرقاوي» وهو يجفف عرقه بمنديله، وقال له هامسا: لا أريد أن يعطل ما حدث مشاريعنا التي اتفقنا عليها من قبل.

جاهد «الشرقاوي» ليخفي ضيقه وأجاب ضيفه:

ـ لا تقلق يا «كمال بك».. لقد اتفقنا أن موافقة ابنتي او رفضها لابنك، خارج مشاريعنا.

انتعشت آمال «كمال» ومديده مصافحا «الشرقاوي» قائلا له: هذا ما كنت أنتظر سماعه منك.. سوف أنتظرك غدا لتوقيع عقد اتفاقنا الجديد.. أما أمر واسطة مسؤول الجمارك، فسأتولاها بنفسي.

وما أن خطا الضيوف خارج «الفيلا»، حتى اندفعت والدة «ريم» إلى حجرة ابنتها، واقتحمتها كالعاصفة وهي تصيح بها: ما هذا الذي فعلته.. هل هذه هي أصول مقابلة الناس وضيافتهم.. أن تنسحبي بمثل هذه الطريقة ولا تنتظري لحين انصرافهم، ألا يكفي إهانتك الجارحة لابنهم ورفضك لمطالب أبيه.. ألم يشفع لك أنهم انتظروك حتى منتصف الليل دون شكوى؟

همست «ريم» بصوت واهن:

ـ أرجوك يا امي كفى.

ولكن صوت الأم علا أكثر، وانفجرت قائلة:

ـ هذا عاشر عريس ترفضينه دون سبب واضح فاخبريني ما السبب في ذلك، هل تظنين أن عملك يمكن أن يغنيك عن الزواج، أم أن هناك ما تخفينه عني، وأنك مرتبطة

بشكل ما مع شاب آخر، ترفضين الإفصاح عن شخصيته؟

أخفت «ريم» وجهها بين كفيها.. كانت توشك على الانهيار.. وهمست في صوت أقرب إلى التوسل: أرجوك يا أمي كفى.. لم أعد أتحمل المزيد.

زفرت الأم في لهاث حاد كأنها تطلق أعاصير غضبها من رئتيها، وقالت في صوت لاهث:

ـ حسنا.. سأغادر المكان.. ولكني أؤكد لك أنك ارتكبت بما فعلته اليوم خطأ فادحا.. وستكونين مضطرة لإصلاحه، ولو كان الثمن أن تتركي عملك الذي يشغلك عن أي شيء آخر، حتى عن حياتك، فلن يفيدك عملك بشيء إذا تقدم بك السن وأنت وحيدة بلا زوج أو ابن، وانظري إلى زميلتك «فريدة شاكر» لتتعظي بما جرى لها!

وخطت الأم خارج الحجرة.

وظل وجه «ريم» بين كفيها أسيرا.. وتمنت لو استطاعت ان تذرف الدموع لتخفف من ألم مشاعرها وقسوة كلمات والدتها.

وأحست بيد حانية تربت فوق رأسها كأنها تمسح كل

آلامها.. فرفعت عينين مطعونتين بالألم.. وواجهها وجه والدها الحنون الذي جلس إلى جوارها.. وقد راح يربت فوق كفيها برقة..

وهمست تقول له: لماذا تعاملني أمي بمثل هذه القسوة.. لماذا ترغب في إجباري على شيء لا أريده وتلومني إن أعلنت رفضي صراحة؟

أجابها والدها في رقة:

-إنها تحبك وتخاف عليك.. ولا تزال تؤمن أن أفضل حماية للفتاة هي الزواج.

همست في صوت متهدج:

-وهل أتزوج لمجرد أن والدتي ترغب في ذلك. ألم تر بعينيك يا أبي.. لقد بادر الجميع بانتقادي.. الأب والأم وحتى العريس الشاب.. فلم يعجبهم نحافتي ولا عملي ولم يروا فيَّ غير دمية جميلة لابنهم المغرور المتعالي بمال أبيه، الذي لافضل له فيه، وجميعهم يرغبون في التوسط لهم من أجل كسر القانون والتحايل عليه، فكأنني صفقة رابحة بالنسبة لهم، يريدون استغلالها لأقصى حد.

ـ لم يجبرك أحد على ما لا تريدينه يا ابنتي.. أنت تعرفين أن أمك تثور سريعا وسرعان ما تهدأ.. وأنا وأنت قد اتفقنا من قبل بأنه لن يجبرك أحد على شيء.

عاودت «ريم» إغماض عينيها في ألم، وقالت في صوت متهدج:

ـ ولكن أمي لن تتوقف عن جلب العرسان لي من ابناء صديقاتها في النادي، وأنا لست سلعة يأتي أي شاب للاطلاع على مواصفاتها وكأنه يعاين بضاعة سيشتريها بماله، إن هذا الأمر يؤلمني تماما يا أبي، ويقلل من اعتزازي بنفسي وكرامتيّ.

احتضن «الشرقاوي» ابنته في رقة بالغة، وربت فوق وجنتيها قائلا:

ـ أعدك أن هذا الأمر سيتوقف ما دام يؤلمك.. وسنترك لك حرية الاختيار.. وتأكدي أن أي شاب ستختارينه زوجا لك سأوافق عليه مقدما، فإنني اثق في رجاحة عقلك ونضوج مشاعرك.

همست ترجو والدها:

ـ ولكني لست أفكر في الزواج الآن.. إن ما يشغلني هو عملي.

أجابها في حنو:

ـ كما تشائين يا ابنتي.. ولكن تذكري أن الايام والاعوام تسرقنا.. ونجاح الإنسان في عمله مهما كان، لن يكفي لملء فراغ حياته.. فليس ما هو أجمل في الدنيا من منزل يمرح فيه الأطفال الصغار.. وأنا ووالدتك نتمنى أن نرى أطفالك قبل أن ينتهي بنا الأجل.

هتفت في ألم وذعر:

ـ متّعكما الله بالعمر الطويل يا أبي أنت وأمي، فلا أحد لي في الدنيا غيركما.. ولا أرغب أن يحدث انشقاق بينكما بسببي، فأنا أعرف كم تحب أمي وتقدرها، وكم تحبك هي، والموت أهون عندي من أن تختلفا بسببي.

تطلع «الشرقاوي» إلى وجه ابنته الشاحب وعينيها الذابلتين فاصابه الألم للحزن العميق المرتسم فوق صفحة وجهها، فقال في حنان: حماك الله من كل شر يا ابنتي، ولا تخشي شيئا، والآن أرى أنك متعبة جدا.. وسأتركك لتنامي.

غمغمت «ريم» في صوت مكدود:

-إنني مرهقة بالفعل، بل في أشد حالات الإرهاق.

طبع الأب قبلة حانية فوق جبهة ابنته، وغادر حجرتها بعد أن ألقى عليها نظرة حنو أودعها كل مشاعره، ثم أغلق الباب خلفه وفي رفق.

وأغمضت «ريم» عينيها في إرهاق بالغ.. كان يومها شاقا طويلا.. وانتهى بخواتم سيئة.

وكادت تفرغ ما في جوفها عندما طاف بعقلها «سامح» بشعره المصفف بعناية بالغة وأصابعه المنمقة وعينيه شبه المكحولتيْن.. الطاووسيتين.

ثم تذكرت شيئا.. ضابط الشرطة الفظ الخشن..

وقفز غضبها إلى وعيها مرة أخرى.. لقد وعدت بعقابه.. ولكن.. لم يكن الوقت مناسباً لإجراء الاتصالات اللازمة لذلك.

وفي الصباح يمكنها أن تفعل أشياء كثيرة..

وأغمضت عينيها.. ثم تسلل النوم الى ذهنها المكدود في خفة.. وأراحها من تعبها.

سيف العدالة

وأيقظتها أصوات زقزقة العصافير في الحديقة كأنها تتنادى في مرح ملائكي.. ألقت «ريم» نظرة إلى المنبه.. جاوز الوقت الحادية عشرة صباحاً بقليل..

أحست بالنشاط يسري في عروقها.. كان عقلها لا يزال مكدودا ولكن بدنها بدا توّاقا للنشاط والحركة في ذلك الصباح الجميل.

غادرت فراشها واغتسلت ومشطت شعرها ثم ارتدت «تاييرا» صيفيا أنيقا وهبطت إلى الحديقة.. كان والدها جالسا يقرأ الجرائد ويحتسي الشاي.. وعندما شاهدها ابتسم قائلا: أخيرا استيقظت يا اميرتي.. ظننت أنك لن تستيقظي قبل المساء لشدة الانهاك الذي كان باديا عليك بالأمس.

طبعت «ريم» قبلة على جبهة والدها، وزفرت قائلة وهي تأخذ مقعداً إلى جواره:

ـ لكم كنت متعبة مرهقة.

مال والدها صوبها باسما وهو يصب الشاي في فنجان أنيق أمامها قائلا:

ـ ما رأيك في إجازة لمدة أسبوعين في «باريس»؟

عقدت «ريم» حاجبيها وهي تتناول فنجان الشاي قائلة:

دعني أخمن يا أبي.. إنك ستصحبني في هذه الرحلة.

أليس كذلك؟

أومأ والدها باسما وأجابها:

ـ هذا صحيح

هزت رأسها بفرح طفولي وهي تتصنع التفكير قائلة:

ـ وهناك صفقة أو عمل ينتظرك في «باريس».

أومأ برأسه مرة أخرى قائلا:

ـ هذا صحيح أيضاً.

ألقت «ريم» برأسها فوق كفها وهي تتنهد قائلة:

ـ وبهذا ستنشغل عني طوال الوقت وتتركني وحيدة يا أبي العزيز.

عقد والدها حاجبيه قائلاً:

ـ ليس بالضبط!

زفرت «ريم» زفرة حائرة أودعتها كل أحاسيسها قائلة:

ـ يا لها من إجازة سأعاني فيها من الملل!!

قال والدها في حماسة:

ـ ولكنها «باريس».. من يرفض رحلة إلى «باريس»، بما أنني أعدك ألا أنشغل تماما بعملي.. فيمكنني مثلا أن أقترح أن تمتد الرحلة أسبوعين آخرين نقضيهما في «باريس» أو ربما نسافر إلى «فيينا» أو «لندن» معا.

التمعت عينا «ريم» بشدة وقالت: إن طريقتك في الإقناع رائعة حقا يا والدي.. وقد بدأت أقتنع بها، وأعتقد أنها ستكون إجازة رائعة.

ارتسم القلق على وجه الأب وهو يقول:

ـ إنني أشعر أنك في حاجة لهذه الرحلة أكثر من أي وقت

مضى، فلا يزال الإرهاق والتعب يطلان من عينيك، وأعتقد أنك في حاجة بعض الوقت للتخلص من آثارهما.

أومأت «ريم» برأسها موافقة.. وأحست أن والدها يتحاشى الحديث عن أحداث الأمس، ولم تكن بها رغبة أيضا لفتح باب المناقشة ثانية في نفس الموضوع.

والتقطت جرائد الصباح من فوق المائدة.. وجمدت نظراتها فوق الصورة المنشورة في ذيل الصفحة الأولى لجريدة الأخبار.

كانت صورته هي دون أدنى شك.. لا يمكنها أن تنسى تلك الملامح الخشنة الصارمة أبدا، ولا النظرة الرجولية، والندبة الواضحة بأعلى جبهته والنجوم الثلاث المستقرة فوق كتف صاحبها كأنها أوسمة الرجولة والظفر.

كان هو.. ضابط الأمس الذي احتجز رخصة قيادتها.. وقفزت عيناها فوق السطور لتقرأ سبب نشر صورته بالصفحة الأولى.. كان هناك عنوان قصير يقول «الضابط البطل» وأخذت عيناها تقرآن بقية الكلمات.. كانت السطور التالية تشرح كيف استطاع ذلك الضابط القبض على عصابة من محترفي الإجرام، كانوا عائدين لتوهم من جريمة سرقة خزينة

شركة كبيرة فاستولوا على مليون جنيه منها، بعد قتل اثنين من حراسها، وعندما شاهدوا كمين الشرطة فوق كوبري ٦ أكتوبر، بادروا بإطلاق الرصاص على أفراد الكمين فأصابوا ضابط الشرطة برصاصة في كتفه، ثم لاذوا بالهرب بسيارتهم، ولكن ضابط الشرطة البطل قام بقيادة سيارة الشرطة برغم إصابته ومطاردة سيارة العصابة وأصاب إطارات سيارتهم بالرصاص فأجبرهم على التوقف، ثم جردهم من سلاحهم، في الوقت الذي أقبلت فيه دورية شرطة معاونة في اللحظة المناسبة فألقت القبض على المجرمين، وبعدها تم نقل نقيب الشرطة البطل «عادل خاطر» للعلاج بمستشفى الشرطة بـ «العجوزة».

ارتعدت أصابع «ريم» الممسكة بالجريدة وارتجفت شفتاها.. دق قلبها عنيفا مثل قرع الطبول، وأحست بدمها يتدفق ساخنا ملتهبا إلى رأسها.

عضت شفتها السفلى بقسوة حتى اوشكت أن تدميها.. أحست بحزن بالغ لا مزيد عليه نحو ذلك الضابط الشاب البطل.

كأنها المسؤولة عما حدث له.. كأنها المتسببة فيه.. بالأمس

فقط سخرت منه وتوعدته بالفعل والتشريد لأنه كان يمارس عمله في جدية وحزم.. لأنه كان يؤدي واجبه الخطر متحمّلاً سخافة وقسوة ولا مبالاة الآخرين.

من داخل سيارتها الفاخرة وبوقها الصاروخ راحت تسخر منه وأوشكت أن تنزل به عقابا قاسيا، في الوقت الذي كان يضع فيه روحه وقلبه فوق كفه مطارداً اللصوص والمجرمين والقتلة من أجل أن يذود عنها وعن غيرها.. عن المجتمع كله. كأنه سيف العدالة والموكل إليه إنزال القصاص بالأشرار والأوغاد.

أحست «ريم» كأنه تلقى تلك الرصاصة في كتفه نيابة عنها.. بدلا منها.. وكأنه يرد إساءتها بصنيع لا مثيل له.. بإحسان لا قدرة لأي إنسان على رده.. فأي نبل أعظم مما فعل ذلك البطل؟

وشعرت «ريم» بدموع توشك أن تقفز من عينيها، فقفزت من مقعدها، وغمغمت لأبيها في صوت لاهث مضطرب تفوح منه رائحة دموع: معذرة يا أبي، فأنا مضطرة للانصراف فورا.

وأسرعت تغادر الحديقة مهرولة.. وجاءها صوت والدها المندهش متسائلا من الخلف: «ريم».. ماذا هناك؟

فأجابته وهي تحرك مفتاح موتور سيارتها: إنه عمل عاجل يا أبي.

غمغم بدهشة وحيرة: أي عمل عاجل هذا الذي قفز إلى ذهنها فجأة؟

فصاح تجاهها: والإجازة.. هل ستسافرين معي لأحجز لك مقعدا على طائرتي نفسها؟

ولكنه لم يحظ بأي إجابة.. ففي اللحظة نفسها زأرت عجلات سيارتها فوق الطريق وانطلقت بكل سرعتها كأنها تسابق الزمن.

التقط «الشرقاوي» الجريدة وألقى نظرة على الخبر الذي كانت ابنته تقرؤه منذ لحظات قليلة..

ثم تساءل بدهشة، أي علاقة بين ابنته وضابط الشرطة المصاب؟

* * *

البطل

تطلعت وجوه فضولية كثيرة في دهشة نحو «ريم» وهي تقطع ممرات مستشفى حاملة باقة ورد، فتساءل العديدون عما أتى بالمذيعة الشهيرة الى مستشفى الشرطة.. وهل لها قريب أو زميل يعالج بها؟

للشهرة قيودها.. وفوائدها أيضا.. ولولا ذلك لما كان سهلا دخولها المستشفى واستفسارها عن النقيب البطل.. «عادل خاطر»..

وكان من السهل على الجميع أن يتفهموا سبب الزيارة وأن يمنحوها كل التسهيلات لإعداد برنامج للتليفزيون خاص عن النقيب البطل.

كان باب حجرته مفتوحا.. والمكان مزدحما.

كان هناك عدد من الصحفيين، وآخرون من رجال الشرطة

تكاثروا في الردهة العريضة وأمام الحجرة.. وعندما ظهرت «ريم» في مدخل الحجرة تطلعت صوبها عيون الكثيرين دون أن تهتم بهم.

ولمحته وهو راقد في فراشه، كتفه مضمد بالشاش الأبيض، ووجهه يبدو شاحبا بلون الثلج، ولكن ملامحه برغم ذلك كانت تقطر عذوبة وصفاء ورجولة.

وكان بطلا.. والأبطال لا تنال منهم لحظات الضعف والألم مهما تكاثرت عليهم. وكأن البطولة هالة من نور تحيط بوجوه أصحابها، حتى وإن بدت غير ظاهرة لعيون الكثيرين.

ولمحها هو.. تعلق بصره بها لحظة في دهشة.. وبدا عليه أنه تذكرها على الفور.. وكأنه بنظراته المندهشة يتساءل عما أتى بها؟

وتلاقت عيونهما في لمحة قصيرة.. بالغة التأثير..

بدا وكأن تيارا كهربائيا قد سرى في عيونهما.. فانتزعهما عن العالم كله.. واعتلى بهما في موكب ذهبي إلى سماء بعيدة وفضاء لا حدود له..

ومدت «ريم» يدها بباقة الورد نحو «عادل» وهي تحاول

استعادة نفسها من ذلك الموكب السحري، فتقبلها بابتسامة عريضة أنارت وجهه أكثر.

وتنبهت «ريم» إلى صوت شخص يحدثها من الخلف في ألفة ومودة.

واستدارت وهي تكتم انفعالها.. وشاهدت وزير الداخلية واقفا مبتسما. كان واقفا مكانه لحظة دخولها الحجرة، ولكنها لم تلمحه لشدة انفعالها.

ومد الوزير يده مصافحا وهو يقول لها كصديق قديم:

ـ مرحبا بك يا أستاذة «ريم».. لقد وفرت علينا مهمة الاتصال بالتليفزيون لتصوير النقيب «عادل خاطر» وإظهار بطولته للسادة المشاهدين.

أجابته باسمة في سرور:

ـ هذا ما جئت لأجله يا سيادة الوزير، لاستئذان النقيب «عادل» البطل، وتحديد الموعد الذي يراه ملائما للتصوير، إن كانت حالته الصحية لا تسمح الآن.

أجابها الوزير في لهجة من تعود تقدير الأمور:

ـ إن حالته الصحية جيدة كما أخبرني الأطباء، وأحب أن

اذكر لك أن الوزارة تقديرا لبطولة الضابط الشاب قررت منحه مكافأة استثنائية بالإضافة إلى ترقية لرتبة رائد.

غمغمت بفرحة كأنها تلقت الترقية والمكافأة لنفسها: شكرا لك يا سيدي الوزير.

وأسرعت إلى أقرب هاتف لتتصل بالأستاذ «جلال كريم» مخرج برنامجها تطلب حضوره على الفور مع فريق التصوير.. وهي واثقة أن «عادل» لن يمانع.. وقد رحبت بها ابتسامته العريضة برغم وهن الألم.

وخلت الحجرة بعد انصراف الوزير وقيادات الشرطة إلا من بعض الصحفيين، الذين انصرفوا واحداً بعد الآخر بعد التقاط الصور اللازمة، واعتذر «عادل» عن الإدلاء بأي حديث بسبب إرهاقه.

وصارا وحدهما في الحجرة.. قبل وصول فريق التصوير من التليفزيون.

كانت باقة الورد لا تزال إلى جواره.. وقد ضمها إلى ذراعه. كأنه تلقى أغلى هدية. وتقابلت عيونهما مرة أخرى..

وأحسست «ريم» بشيء من الخجل، كانت نظراته قوية آسرة.. في حياتها لم تقابل مثل هذه النظرة، ولا شعرت بقوة صاحبها.. ورجولته الدافقة، وهمست تقول له كأنها تحاول الهرب من جاذبية عينيه:

-إنني أعتذر عما بدر مني بالأمس.. وأعترف أنني كنت عصبية ومرهقة بشدة، لم أدر ما أقوله أو أفعله.

أجابها بصوت رقيق: أنا أيضا أعتذر.

بدهشة سألته: ولماذا؟

أجابها بابتسامة اعتذار:

-لأنني لم أتعرف عليك لحظتها، بالرغم من أنك مذيعة شهيرة ويشهد لك الجميع بالامتياز.. فقد علمت ذلك من بعض أفراد قوة الكمين الذين شاهدوا عراكنا ليلة أمس، بعد انصرافك، فوقتي لا يسمح لي بترف مشاهدة التليفزيون.

وأضاف باسما: سوف أدفع من جيبي الخاص ما حررته لك من مخالفات.

أجابته بسرعة ولهفة: لا.. أنا أستحقها على أي حال.

تطلع إليها باسما وقال: أرى أنك كنت محقة في تهديدك

بنقلي.. ما دام الوزير يعرفك شخصيا، ولعله كان ضيف أحد برامجك.

ازدادت ابتسامتها اتساعا وهي تجيبه:

-بل ضيف ثلاثة من برامجي!

رفع حاجبيه متظاهرا بالقلق وهو يقول مداعبا:

- إن هذا كان كفيلا بفصلي عن الخدمة لو ساءت الأمور!

أجابته «ريم» في جدية:

- بل أنت شرف ورمز لجهاز الشرطة بأكمله.. وهو ما يجب أن يراه كل مشاهدي برامجنا.. فسوف تصير نجمها منذ هذه اللحظة.. فقد صرنا في زمن عز فيه الأبطال الحقيقيون.

أغمض «عادل» عينيه بإرهاق للحظة، ثم همس يقول لها: ألا يمكن إلغاء تصوير هذا البرنامج؟

شحب وجهها قلقا وسألته: هل أنت مرهق إلى هذا الحد؟

فتح عينيه وهو يقول:

-ليس تماما.. ولكني أخشى أن تراه والدتي، فتقلق علي.

بدهشة سألته: ألا تقرأ هي الجرائد؟

أضاء وجهه وهو يقول:

ـ إنها سيدة ريفية كاد بصرها أن يكل.. وهي أمية لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف شيئا عن العالم.. وليس لها أحد غيري.

تهدج صوت «ريم» وقالت في حماسة:

ـ ولكن من حق والدتك أن تفخر بابنها البطل.. ولا شك أن أنباء حادثتك ستصلها من أبناء قريتها، فلا بد أن جرائد الصباح قد حملت إليها الأخبار.

غمغم «عادل» في قلق وتوتر: أنت على حق، ولا أدري كيف أطمئنها علي.

وفجأة دوت من مدخل الحجرة صيحة ملتاعة: ولدي.

واندفعت سيدة في الستين من عمرها متّشحة بالسواد، تتساند على ذراعي شابين فتيين، وقد حفر الخوف والجزع، شروخا وأخاديد عميقة في وجهها.

ولم تكن «ريم» بحاجة لمن يخبرها أن تلك العجوز هي أم عادل.. وأن هذين الشابين من أبناء قريتها..

واعتدل «عادل» عندما وقع بصره على العجوز صائحا في لهفة: أمي.

واندفعت الأم تحتضن ابنها وعيناها غارقتان في الدموع، وراحت تقبله.. فأغمض «عادل» عينيه في ارتياح كطفل صغير يلوذ بحضن أمه التي أخذت تربت عليه، كما لو كان وليدا غير قادر على حماية نفسه إلا بها!

كانت المرأة بسيطة.. بساطة الأرض الطينية التي تمنح بسخاء دون مقابل. وأكدت ملابسها الخشنة ومعصماها وعنقها الخالية من أي حلي ذهبية رقة حالها.. ولكنها في الحقيقة كانت غنية جدا.. بأصالتها وتلقائيتها وطيبتها.

كانت من أغنى نساء الأرض بابنها البطل، فالأبطال لا ينبتون من فراغ، ولا من أرض مليئة بالأشواك والحسك والصخور الجرداء.

لا ينجب الأبطال إلا أصحاب الضمائر والقلوب الحية.

وانسالت دموع «ريم» رغما عنها وهي تشاهد ذلك المشهد الإنساني بين «عادل» وأمه، وهي تتحسسه بأصابعها وكفيها، وقد عجزت عيناها عن تطويق ملامحه.

ولمحت «ريم» مخرج برامجها والمصورين في مدخل الحجرة.. وبسرعة قفزت من مكانها لاستثمار المشهد الرائع.. ودارت

الكاميـرا لتلتـقط صـور البطل وأمـه دون تلقين سـابق أو وسـائل للتجميل أو التزييف.

كأنها تصور الفطرة ذاتها بنقائها وبراءتها..

وقـد كـان ذلك اللقـاء العـفـوي.. من أعظم اللقـاءات التي أدارتها «ريم» في حياتها!

* * *

الوقوع في الحب

ولم يغمض لـ « ريم » جفن في الليالي التالية.

كانت تقضي ساعات الليل الطويلة مستيقظة تحدق في الفراغ وسقف الحجرة.

أحدث برنامجها عن « عادل خاطر » ما توقعته من نجاح مدو.. وكانت أشد لحظات البرنامج تأثيرا عندما ظهرت صورة الأم الريفية البسيطة وهي تحتضن ابنها وتسكب الدموع الساخنة.

كانت صورة بلا زيف أو رتوش أو تجميل.. أصدق ما صورت الكاميرا.

وانهالت مكالمات ورسائل المديح للبرنامج ومقدمته.. وتسابقت بعدها عشرات البرامج لعقد لقاءات مع الضابط البطل.. تسبقها حملات إعلانية مكثفة.

ولكن برنامج «ريم» كان هو الأفضل برغم ذلك..

تحول «عادل خاطر» إلى بطل بعد ظهوره على الشاشة في برنامج «ريم».. وصارت والدته رمزا لكل أم صابرة مكافحة، ربت ابنها الوحيد تتقاسم معه اللقمة الصغيرة التي لم تكن متوفرة لها في كثير من الأحيان.. ولكنها برغم احتياجها وفقرها وعوزها، ربت ابنها على الفضيلة والقيم النبيلة وغرست فيه معاني التضحية والفداء.

وزارت «ريم» «عادل» مرتين بعدها في المستشفى.. وكل مرة كانت تود لو تظل إلى جواره يتحدثان في أمور شتى.. ثم يمتد بهما حديث الصمت والعيون إلى ما هو أبعد من الحديث وأروع.

ولكنها كل مرة كانت تتركه وهي تستشعر في نفسها خجلا أمام عيون العاملين في المستشفى وبعض الصحفيين وهم يرمونها بنظرات متسائلة عما يأتي بها لزيارة الضابط الجريح بعد أن صورت برنامجها عنه.

وقاست من إحساس مؤلم بالوحدة وهي تغالب نفسها كي لا تزوره مرة أخرى.. وعندما ذهبت منذ أسبوع.. وجدته قد

غادر المستشفى منذ ساعات قلائل.. وعاد إلى قريته الصغيرة وأنه في فترة نقاهة..

وآلمها أنه لم يحاول حتى الاتصال بها ليخبرها بمغادرته المستشفى وسفره.. كأنه يؤكد لها أنها لا تعني بالنسبة له شيئا.

ومرت ساعات الأسبوع وهي تتقلب ما بين الحزن والألم والرجاء..

واعتذرت لوالدها عن السفر.. فسافر وحده وهو لا يدري سر اضطراب ابنته. ولم تضايقها أمها بترتيب مقابلة لعريس آخر.. وإن كانت قد راحت ترميها بنظرات متشككة قلقة وتحصي عليها كل سكناتها وهي تود لو استطاعت قراءة ما يجول بعقلها.. وقلبها!

غادرت «ريم» فراشها، ووقفت أمام نافذة حجرتها المفتوحة تلقي بصرها إلى الأفق البعيد المظلم.. وقد رقدت كل الأحياء حولها في سبات.. حتى عصافير الحديقة.

وسألت نفسها للمرة الألف.. ما هذا الذي يحدث لها تلك اللحظة؟

بل مـاذا حـدث لهـا منذ اللحظة التي تلاقى فـيـهـا بصـرها و«عـادل» في المستـشفى، فشـعرت لحظتـهـا كأن النظرة حلقت بها في آفاق سحب تلف العالم كله؟

هل هو إعجاب به.. أم تقدير لبطولته؟

ولكنها قابلت من قبل أبطالا عديدين وأعجبت بكثيرين، ولكن أبدا ظل الإعجاب مجرد إعجاب، لم يدق قلبها ويخفق باضطراب بمثل هذا الشكل، ولا جـفـاها النوم بسـبب أفكارها المضطربة المشوشة.. ولا سعت لكي تنعم عيناها برؤية شخص ما مرة ثانية بتلك اللهفة، بالرغم من نظرات الدهشة والتساؤل في عيون الآخرين.

فما الذي يحدث لها هذه المرة؟

وفي اضطراب بالغ دق له قلبها عنيفا أكثر من كل مرة، وهي تسأل نفسها بأنفاس متقطعة..

هل هو الحب؟ وهل يفعل الحب بالإنسان هكذا؟ هل يتركه فريسة للسهاد والأرق والقلق والتوتر؟ هل يغير الحب من طباعنا ويقلب عاداتنا ويبعثر نظامنا ويجبرنا على ما لم نتعود عليه؟

هي لم تجرب الحب من قبل.. ولا كـان لديهـا وقت لتـقـرأ

عنه.. ولا سمحت لنفسها أن تستمع إلى تجارب صديقاتها وزميلاتها، واعتبرت ذلك خروجا عن الأدب وإضاعة للوقت.

فكيف تعرف أن ما تمر به، هو الحب؟ وهل هناك وسيلة للتأكد؟

ولكن ماذا تكون مشاعرها إذن.. إن لم يكن سهم الحب قد أصابها حقا؟

هل الحب هو السعادة المتناهية.. تلك الدفقات من لحظات السعادة التي كانت تشعر بها عندما تتلاقى عيونها و«عادل» في لحظات الصمت الطويلة؟

هل الحب هو الألم الجارح.. ذلك الألم الذي تشعر به يعمّق جراحا في قلبها لم يكن لها وجود من قبل، لمجرد غيابه عنها.. وأنه سافر دون أن يتصل بها ولو هاتفيا؟

هل الحب هو مزيج عجيب من السعادة والألم؟ وكيف لها أن تعرف وهي لم تجرب من قبل؟

وكان الأمر المثير للدهشة حقا، أن تنقلب مشاعرها نحو «عادل» بمثل تلك السرعة.. في أقل من نصف يوم تبددت مشاعرها تماماً.. من الغضب والثورة والرغبة في الإيذاء..

استدارت مشاعرها دورة كاملة ليمتلئ قلبها بمشاعر أخرى رقيقة لم تجربها في حياتها أبدا.. غريب أمر الإنسان.. وغريبة هي مشاعره حقا..

وقفز خاطر إلى ذهن «ريم».. إن كانت تتعذب هكذا لغيابه عنها ولرغبتها في رؤيته، فلماذا لا تسعى لهذا الرؤية.. لماذا لا تذهب إليه في قريته.. كأنها ذاهبة للاطمئنان عليه.. أو كأنها ذاهبة لتصوير برنامج آخر معه.. تنقل للمشاهدين تفاصيل حياته في منزله المتواضع؟

كانت الفكرة رائعة مدهشة حتى أن أنفاسها تهدجت في عنف والتهب وجهها لشدة الإثارة. كيف غابت عنها تلك الفكرة الأيام الماضية؟

ستذهب إليه في الصباح في قريته مصطحبة فريق التصوير في مهمة عمل.. ولن يلومها أحد إذا ما ذهبت.. فهي تمارس عملها أمام الجميع.. والمهم أن تقنع رؤساءها بتلك الزيارة.

هي وحدها كانت تعرف السبب الحقيقي لعملها.. ولن يطلع أحد على قلبها ويفتش عن أسبابه الخفية.

وأراحها هذا الخاطر.. فاغمضت عينيها على شوق لا حد له، وعادت إلى فراشها.

ولكن النوم جفاها.. كان لهيب الشوق أقوى تأثيرا من حاجتها للنوم. فبقيت مسهدة حتى الصباح.. تتعجل شروق شمس النهار. ومقابلة من تحب.. ففي تلك اللحظة فقط ادركت بغريزتها أن ما تشعر به تجاه «عادل».. لم يكن إلا الحب ذاته!

* * *

لقاء

كـان السـفـر شـاقـا فـوق الطـرق المتـربة المؤديـة إلى قـريـة « عـادل » الراقـدة في حـضـن الريـف على مـشـارف مـحـافظـة أسـيوط .

وقد بدت على البعد سلاسل من الجبال الصخرية القاسية، التي بدت بشموخها وصمودها، كأنها تعلن أنها ما تنجب إلا الرجال .

وعندما توقـفت سيـارة التليـفـزيون أخيـرا أمـام باب المنزل الصـغيـر المصنوع من الطوب النيء، تنفست « ريم » أخيـرا في ارتياح وتبخر إحساسها بوعورة الطريق ومشقته .

وقـفـزت من السـيـارة وقـد عـاودها نشـاطهـا وخلفـهـا فـريق التصوير، ونفض الأستاذ « جلال » بعض التراب عن سترته قائلا : ها قد وصلنا أخيرا، وقد ظننت أننا لن نصل ابدا .

همس أحد المصورين في ضيق لزميل قائلا: لم يكن هناك داع لهذه الرحلة على الاطلاق، وتحمل كل هذه المشاق.

ولكن الهمس تناهى إلى أذني المخرج، فالتفت إلى المصور قائلا: بل هناك داع مهم.. بالنسبة لـ «ريم» على الأقل!

كان بحاسته وخبرته قادرا على قراءة بواطن الأمور.. ومن غيره يمكن أن يكون خبيرا بشؤون القلب وما يفعله بصاحبه.

أدرك «جلال كريم» مبكرا وقوع «ريم» في الحب.. منذ اللحظة التي شاهدها تتلهف على تصوير ذلك الضابط في المستشفى وتستدعيه للتصوير دون إعداد مسبق.

وتأكد من وقوعها في الحب عندما شاهد نظرات عينيها للضابط الجريح واستمع إلى صوتها المتهدج وهي تتحدث إليه.

ولهذا لم يندهش عندما طلبت «ريم» القيام بتلك الرحلة لتصوير ضابط الشرطة في منزله الريفي.. بل قام بتسهيل المهمة لها واقنع من كان معترضا. كأن سعادته الحقيقية أن يرى «ريم» سعيدة، لو تطلب الأمر مساعدته ما توانى، دون أن تدري حتى بما يكنه قلبه لها.

طرقت «ريم» باب المنزل، ومرت لحظات طويلة قبل ان ينفتح

الباب، ويطل منه وجه الام الريفية الطيبة، وقد راحت تحدق بعينيها الكليلتين في الواقفين أمام الباب دون أن تكون لها القدرة على تمييزهم.

وفي اندفاع احتضنت «ريم» الام العجوز وهي تقول لها بسعادة: كيف خالك يا أمي.. ألا تذكرينني.. لقد تقابلنا في المستشفى من قبل.

تطلعت العجوز لـ«ريم» وقد ضاقت عيناها لأقصى حد، ومدت يدها تتحسس ملامح «ريم» ثم هتفت في فرحة ولهفة: أنت مذيعة التليفزيون الجميلة.

ضحكت «ريم» قائلة: أنا هي.. وقد جئنا للتصوير مرة أخرى.

أفسحت الام الباب مرحبة وهي تقول: تفضلوا.

خطت «ريم» إلى الداخل وفضولها يسبقها.. كأنها تلج عالما مسحورا طالما حلمت به..

كان المنزل الطوبي بسيطا. بلا أثاث كثير.. بلا سجاجيد.. بلا ثريات.. لم تكن هناك سوى عدة دجاجات تكأكئ هنا وهناك.. وأريكة عريضة في أحد الاركان يقابلها فرن بلدي

صغير.. وقد فرشت الارض بحصيرة صغيرة رخيصة، وطلمبة ماء دقت في المنتصف تماما.

لم تكن هناك حتى مائدة للطعام، وقد بدا أن الطبلية الصغيرة في الركن كانت تقوم بنفس المهمة عن طيب خاطر.

وكان ثمة باب يؤدي إلى حجرة نوم يظهر بها سرير تحيطه ناموسية عريضة وأمامه دولاب ترك فوقه الزمن آثارا عديدة دون شكوى.

كان المكان أبسط مما تصورت «ريم».. وأشد صدقا وبراءة من أي مكان آخر دخلته في حياتها.

وقالت الام وهي تشير للأريكة العريضة: تفضلوا بالجلوس.. سأجهز لكم الشاي حالا.

وخطت العجوز الطيبة نحو موقد صغير، وقد بدا عليها أنها ليست في حاجة إلى عينين للرؤية، في مكان قضت فيه أكثر عمرها، وحفظت أركانه ودقائقه.

ولكن «ريم» استوقفتها قائلة: لا داعي للشاي، فنحن متعجلون للعودة قبل المساء.. فهل يمكن أن تدعي لنا «عادل» لتصويره داخل المنزل؟

قالت الام في دهشة وحيرة:

ـ عادل.. ولكنه سافر إلى القاهرة هذا الصباح.

شحب وجه «ريم» وأحست أن الاجابة كانت مثل طلقة رصاص أصابت قلبها. وأوشكت قدماها أن تتهاويا بها.. وعضّت شفتها في قسوة.. كيف يسافر في تلك اللحظة بالذات.. كيف لم ينتظر حتى دون أن يعرف أنها قادمة إليه؟ ولم تدر كيف غادرت المنزل.. ولا كيف قطعت الوقت خلال رحلة العودة الطويلة المجهدة. ولا كيف اتجهت إلى مكتبها في مبنى التليفزيون.. ولا ما الذي جعلها تذهب إلى هناك بدلا من العودة لمنزلها، وقد أشرفت الساعة على العاشرة مساء.

كانت تكتم ثورتها وتكبت غضبها.. طوال الطريق أخذت تلوم نفسها المغامرة.. ما الذي تفعله بنفسها.. كيف تترك مشاعرها تتحكم بها وتقود وتصرفاتها إلى هذا الحد؟

وشعرت بالصداع يكاد يمزق رأسها.. وتمنت لو كان هناك ما يريحها ويزيح أوجاع قلبها.

وصاحت غاضبة في ساعي مكتبها تطلب منه أن يأتيها بفنجان قهوة.. وكأن المسكين هو المسئول عن كل ما تعانيه فصبت عليه جام غضبها وهي تخطو داخل مكتبها.

وتوقفت مكانها مدهوشة عندما شاهدت الضيف الذي كان بانتظارها في مكتبها.. كان هو.. «عادل خاطر»!!

شلت أطرافها لحظة.. لم تصدق عينيها.. فجأة اختفى صداعها وذاب جليد غضبها وثورتها..

فجأة لفتها سحابات ناعمة من الراحة والهناء كأنها تمسح كل أوجاعها ومتاعبها.

وقال «عادل» وهو يتقدم نحوها: لقد جئت لزيارتك وشكرك على كل ما قدمته لأجلي، فأخبروني أنك سافرت إلى قريتي لإجراء حوار معي، فلمت نفسي ألف مرة لأنني غادرت القرية هذا الصباح بالذات، وبقيت هنا في انتظارك منذ ساعات طويلة لأشكرك، وقلبي يحدثني أنك ستأتين إلى مكتبك أولا، قبل أن تعودي لبيتك.

تمالكت «ريم» نفسها، وهمست تقول له في لوم: لماذا لم تخبرني بمغادرتك المستشفى وسفرك لقريتك؟

بدا عليه بعض الارتباك، وقال في صوت خفيف: لم أشأ أن أزعجك بأمور لاتهمك.

قفزت الكلمات رغما عنها وهي تقول محتجة: من أخبرك أن أمرك لا يهمني؟

وعضت شفتها ندما على تسرعها.. وتظاهرت بالانشغال ببعض أوراقها، قالت بصوت تعمدت ألا يشي بأي أنفعال بداخلها ولماذا غادرت منزلك بسرعة؟. كان يجب أن تمضي فترة نقاهة أطول حسب أوامر الأطباء.

بدا الارتباك على «عادل» لحظة ثم قال: لقد شعرت ببعض الملل.. ولهذا عدت للقاهرة.

وشحب وجهه وهو ينطق العبارة الأخيرة.

لم يكن صادقا تماما.. أحست «ريم» بذلك من لهجته.. شخص مثله لم يكن معتادا على المناورة واصطناع الكذب.. صدقه هو طابعه الأصيل، وما عداه استثناء..

كانت ملامحه تكاد تصرخ أنه ما عاد للقاهرة إلا ليراها ثانية.

وقفز قلبها من السرور.. وتمنت لو أنه نطق بها.. لو اعترف

بحبه الذي يحيطه بسياج من التوتر والقلق الواضحين في ملامحه.. ونكس «عادل» رأسه كأنه يهرب من مواجهتها وهو يقول: أرجو ألا يكون قد صدمك منظر بيتنا المتواضع.

أجابته في رقة: لا أحد منا له حيلة في اختيار مكان ميلاده ولا أشياء أخرى كثيرة.. ولكني برغم ذلك أحسست في منزلك بطمأنينة وراحة بال، لم أشعر بهما ولا في أفخر القصور وأجملها.

رفع عينيه إليها. ورأت «ريم» فيهما أحاسيس شتى متصارعة، وهمس يقول لها: كان من واجب الضيافة أن أكون في انتظارك بقريتي وأدعوك الى غداء أو عشاء، فهذه هي طريقتنا في الترحيب بضيوفنا.. فهل تقبلين هذه الدعوة من الآن؟

وتقابلت عيونهما..

جاهدت «ريم» لتخفي ملامح السعادة التي ارتسمت فوق وجهها.. والفرح الطفولي الذي ارتسم في عينيها واضحا صريحا.

كانت الامور تسير بأفضل مما تمنت.

وهمست تقول له وكل أفراح الدنيا تزغرد في قلبها: إنني أقبل، فأي مكان تختار؟

المواجهة

كانت الايام التالية أشبه بالحلم..

صار الحبيبان لا يقويان على الابتعاد بعضهما عن بعض ساعات قليلة..

لم ينطق أحدهما باعتراف ما للآخر.. ولكن عيونهما كشفت المستور.. لم يقل لها «عادل» أحبك.. ولم ينطق بها لسان «ريم».. ولكن ما أوضح لغة العيون.. وما أبرع إشارات الأصابع في تلهفها عند اللقاء..

وما أفصح دقات القلوب التي يصيبها لهاث ورعدة محمومة عند اللقاء..

كان الاثنان شهيرين.. ملامحهما معروفة للكثيرين، فباتت العيون تتابعهما في كل مكان عام يذهبان إليه.. وتنطق الألسن بكلمات كثيرة حولهما.

وهمس «عادل» يقول لـ «ريم» في قلق وهو يلمح العيون الفضولية تحاصرهما: أخشى أن يلوك الناس سيرتك لكثرة ظهورنا معا.

فاجابته وعيناها تدوران في فلكه: أتحمل في سبيلك كل مشاق العالم.

ـ لا أريد أن أسبب لك إحراجا ولا خدوشا في سمعتك.

ـ لا يهمني ما يقوله الناس، ما دمت لا أفعل الخطأ..

وتطلعت إليه بشوق مضيفة في همس: الخطأ هو أن نكبل مشاعرنا ونصرع أحاسيسنا البريئة خشية من حديث السوء.

فتطلع إليها «عادل» وهو غارق في بحار عينيها، وهمس يقول لها: سامحيني يا «ريم».

فسألته بدهشة:

ـ ولماذا؟

أجابها بصوت متهدج وهو يحتضن أصابعها الرقيقة بين كفيه القويتين:

ـ لأنني عندما وقع بصري عليك أول مرة، ظننتك فتاة فارغة العقل مرفهة لا عمل لها غير إنفاق المال والتعالي

على عبـاد الله، وهـأنذا أكتشـف خطـأ اعتقـادي.

همست تساله مرة أخرى بفرحة:

ـ ماذا اكتشفت أيضاً؟

أجابها وعيناه تشيان بصدقه:

ـ اكتشفت كم أنت إنسانة رائعة لا مثيل لها وكأنك ملاك من السماء. كأنك رمز الصفاء والنقاء والعفة.. كأنك الحياة ذاتها.

وعندما عـادت «ريم» الى منزلهـا وهي تحلق في سـمـاوات من السعادة، وجدت العاصفة بانتظارها..

كـانـت والدتهـا تقف في منتصف «الهول»، واستقبلتهـا في قسوة وسخرية حادة قائلة: مرحبا بعودتك..

إن الوقت لا يزال مبكرا.. إنهـا العاشـرة مسـاء فـقط، فكيف طاوعك قلبك على ترك حبيب القلب مبكرا هكذا؟

أصابتـهـا العبارة مكان القلب مباشرة كطلقة رصاص مباغتة، فهتفت «ريم» في ذهول:

ـ ماما.. ماذا تقولين؟

تقدمت والدتها تجاهها، وضاقت عيناها أكثر وهي تواصل في غضب أشد وحدّة:

ـ هل ظننت أنني غافلة عما تفعلينه.. وعن ذلك الشاب الذي تقابلينه كل يوم، حتى صارت سيرتك مضغة في الأفواه، إنني لم أدر ماذا أقول لصديقتي التي شاهدتك مع ذلك الضابط أكثر من مرة.. وسخريتها مني عندما سمعتني أتحدث عن اتزانك وتعقلك وأنك لست كالفتيات الأخريات.

تمالكت «ريم» نفسها، وهتفت في ضعف ووهن:

ـ أرجوك يا امي.. إنني لم أفعل ما أخجل منه.. وكنت أقابل «عادل» في العلن وأمام كل العيون.

ـ وبماذا تسمين هذا؟

ـ احتراما للنفس.

ـ احترام النفس الحقيقي يجعل فتاة مثلك لها عائلة وسمعة طيبة تخشى على نفسها وعائلتها ولا تفعل مثل المراهقات اللواتي يقابلن المراهقين أمثالهن سرا.

أحست «ريم» كأنها تلقت لطمة على وجهها، وهمست وكأنها موشكة على البكاء:

ـ أرجوك يا أمي.. لست طفلة ولا مراهقة.. و

قاطعتها والدتها في ثورة:

ـلا اريد أن اسمع منك شيئا . . لقد افسدت ثقتي بك إلى الابد . . ليس هذا ما ربيتك عليه من فضائل وقيم . . لم أكن أظن أن مشاعرك ستنجرف مع أول شاب يمكن أن يخدعك بكلام معسول .

ـليس « عادل » من هذا الصنف .

ـبل هو أسوأ . . وأنا لم أشأ مفاتحتك في الامر قبل أن اجمع معلومات كافية عنه . . أتدرين من يكون حقا وكيف تعيش أمه وأين؟

ـلقد شاهدت ذلك كله بنفسي ولا أحتاج لمن يخبرني عنه .

ـحسنا . . لعلك لا تعرفين أن والده كان يعمل أجيرا في أرض والد صديقتي هذه . . ومات دون أن يجد ثمن دوائه، ووالدته كانت تعمل شبه خادمة في سرايا صديقتي، وهذه هي عائلة حبيبك الكريمة .

تهدج صوت « ريم » وهي تقول في حرارة :

ـإن هذا يرفع قيمة « عادل » في نظري، لأن ما حدث لأبيه لم يجعله ييأس ولا يكره العالم أو يحقد عليه، بل تحدى ظروفه الصعبة وصار انسانا ناجحا نبيلا . ووالدته تستحق أن تنال وساما

لأنها برغم ظروفها الصعبة وما قاسته من حاجة وآلام، ربت ابنها على فعل الخير والإباء والتضحية للآخرين.

ارتسمت نظرة ساخرة قاسية إلى اقصى حد في عيني الأم وقالت:

ـ لا شك عندي أن هذا المحتال وجد فيك صيدا ثمينا. فهو يعرف من تكونين والثروة التي تنتظرك، وهو لا يملك غير بذلته الرسمية التي تعمد الحصول عليها لتقع في شباكه فتاة غرة مثلك.

ـ أرجوك يا أمي.. لا أحب أن تتحدثي عن «عادل» بمثل هذه الطريقة.. إنه أبعد ما يكون عن هذا الظن.

ـ لا أريد أن اسمع المزيد منك.. اسمعي.. لقد اخترت لك عريسا وانتهى الامر، واتفقت مع خالتك..

سوف تتزوجين ابنها الذي رفضته من قبل، ولن تستطيعي الرفض ولو نطحت الصخر برأسك.

صرخت «ريم» في ذهول:

ـ مستحيل.. مستحيل.

أجابتها والدتها في إصرار:

ـ بل ستتزوجينه رغما عنك.

ظهر «الشرقاوي» في مدخل «الفيلا» عائداً وفي يده حقيبة سفره.. كان يبدو متعبا متوترا.. وقد لحق بأول طائرة بعد مكالمة عاصفة من زوجته تخبره بكل ما جرى بعد تأخير غير متوقع.

وتقدم «الشرقاوي» نحو زوجته.. كان في عينيه غضب حبيس، وقال: لن يمكنك إجبار «ريم» على الزواج من شخص لا تريده.

استدارت الام صوب زوجها، وقد اكتسى وجهها بغضب عارم، وصاحت وهي تنتفض حنقا وثورة: أهذا ما أرسلت في استدعائك لتقوله لابنتك.. هل تشجعها على ما تفعله، هل تقف إلى صفها ضدي؟

وارتعدت شفتاها حتى ازرق لونهما، وهمست بصوت مختنق: سوف تتزوج «ريم» من ابن خالتها وتقطع صلتها بهذا الضابط.. إما هذا.. أو أنني سأغادر هذا المنزل للأبد ولن أخطو داخله مرة أخرى، ويأخذ كل منا طريقا مختلفاً.

واستدارت صاعدة إلى حجرتها لتحزم ملابسها، وشحب وجه «ريم» وهي تشعر كأنها تسقط في دوامة لا قرار لها.. كانت تعرف إلى أي حد يمكن أن يصل عناد والدتها..

كانت المرة الأولى التي تهدد والدتها بترك المنزل..

المرة الأولى التي تطلب فيها الطلاق من والدها تلميحا أو تصريحا.

المرة الأولى التي تراها ثائرة عنيفة إلى ذلك الحد.

كان ذلك كله بسببها هي.. وما كانت تتحمل هذا الموقف ابدا.. أن تكون أمها في كفة ميزان، وإرادتها هي في الكفة الأخرى. أمها أو حبيبها.. أن تتسبب في جلب التعاسة والشقاء لأبيها وتدمر حياته، مقابل أن ترتبط بمن تحب..

ما كانت «ريم» تستطيع المفاضلة أبدا.. ولا تقوى عليها.. كانت أرق وأضعف من أن تعقد مثل هذه المقارنة أبدا..

وتحول وجهها إلى لون الشمع.. شعرت أنها توشك على الانهيار.. تراقصت المرئيات أمام عينيها.. وهمست تقول لأبيها في توسل ودموعها تملأ عينيها: أرجوك يا أبي أن تلحق بأمي.. أخبرها أنني سأنفذ ما تريده.. ولكن لا تدعها تغادرنا، فلا أريد لكما أي مشاكل بسببي.

ثم انهارت فاقدة الوعي.

* * *

كلمة حب

قال الطبيب لـ « الشرقاوي » وهو يغادر حجرة « ريم » : للأسف فبعد مرور أسبوع كامل، فإن الحالة لم تتحسن، ومن الواضح أن ابنتك تخوض معركة نفسية حادة بين أمرين كل منهما تحبه وتود الاحتفاظ به، وإن كانت لا تستطيع الاحتفاظ بالشيئين معا، فكانت النتيجة ذلك الانهيار الحاد.. وللأسف فإن حالتها لم تتحسن بعد فترة العلاج السابقة، فكأنها ترفض الحياة ذاتها.. وترفض حتى عودة الوعي إليها. وأعتقد أن علاجها سيطول بعض الوقت، ولكن عليكم بالابتعاد عن أي إثارة عصبية لها من أجل سرعة الشفاء، ولكي تستعيد وعيها مرة أخرى.

ارتسمت في عيني « الشرقاوي » نظرات حزينة تائهة.. لم يدر ماذا يقول.. تمالك نفسه بصعوبة وتطلع في صمت إلى زوجته التي لم تقو قدماها على حملها.. فانهارت فوق اقرب

مقعد.. أرادت أن تقول شيئا ولكن لسانها لم يطاوعها.. ارتعدت شفتاها بقوة.. وامتلأت عيناها بالدموع رغما عنها.

وانهالت دموعها في صمت فوق وجنتيها..

كان في عينيها مرارة وحزن العالم كله.. وأخفت وجهها بكفيها ثم انهارت في بكاء حار.. وهمست تقول في صوت ذبيح: ليت لساني شل ولم أنطق بما قلته.. إنني لم ادر أن « ريم » تتمسك بهذا الشاب وتحبه بهذا القدر.. ظننت أن مشاعرها زائفة وأنها لا تدرك حقيقتها لأنها تجربتها الأولى.. كنت أريد حمايتها من ذلك الشاب وأنا أتخيل أنني أقوم بواجبي كأم، ولكني بدلا من ذلك أوشكت على قتلها.. بيدي هاتين فعلت بابنتي ذلك كله فصارت ترفض الحياة بسببي.. فليتني أستطيع تقديم روحي فداءها..

تقدم « الشرقاوي » من زوجته وربت فوق كتفها برقة وحزن.. غمرت دموعها كف زوجها وهي تقول له: سامحني.. فلم أكن أدري أن ذلك كله سيحدث لابنتنا الغالية بسبب موقفي.. إنها حتى لا تستجيب لي في غيبوبتها أو ترد على كلماتي.. وطرق الباب في نفس اللحظة..

وتقدم الاب ليفتحه بنفسه وداخله هاجس خاص..

وعندما وقع بصره على «عادل» وهو واقف أمام الباب وهو يحمل باقة ورد بين ذراعيه أدرك أنه كان محقا في ظنونه، وأن قلبه لم يخدعه.

كانت عينا «عادل» حمراوين بلون الدماء، وكانت طبقة من الآلام والاحزان تكسو وجهه وتطفئ بريقه..

وقال في صوت مذبوح: لقد جئت لرؤية «ريم»، فامنحاني هذه الفرصة ولو دقيقة واحدة، ثم افعلا بي ما تشاءان بعدها، واقذفا بي إلى الخارج أو حتى أطلقا الرصاص عليَّ...

قفزت الام من مقعدها، وهتفت في «عادل»: ارجوك يا بني.. لقد جئت في اللحظة المناسبة، إن «ريم» مريضة جدا وبحاجة إليك.. لعلك تستطيع أن تخفف عنها.. ادخل اليها يا بني فلعل مجيئك يرطب قلبها.

لم يصدق ما قالته الام للوهلة الأولى.. كان يدرك كم ترفضه وتدينه.. ولكن لم يكن هناك أي سبيل للتراجع، فخطا داخلا البهو العريض المكتظ بالأثاث الفاخر والثريات الثمينة واللوحات التي تساوي ثروة..

عبر ذلك دون أن يلفت انتباهه.. وتقدم الأب نحوه ليقطع عليه الطريق.. وترامق الاثنان.. كانت المرة الاولى التي يتقابلان فيها.. رجلا لرجل..

مد «الشرقاوي» يده نحو كتف «عادل».. مكان إصابته دون أن يدري.. وضغط عليها بقوة.. وأحس «عادل» بتيار من الألم مكان إصابته الذي لم يندمل بعد.. ولكنه كتم آلامه.. كان مستعدا لأن يحتمل أي شيء في العالم لأجل «ريم».. وضاقت عينا «الشرقاوي» ولهثت انفاسه فصارت كبركان يوشك أن يقذف بحممه، وهمس يقول لـ«عادل»: إن كنت تحب ابنتنا حقا دون غرض أو طمع فأثبت لنا ذلك.. فالحب الصادق ينفذ من القلب دون رسول.. إن الفرصة متاحة أمامك فلا تفقدها.. ولا تجعلنا نفقد ابنتنا بسببك.. فإن كنت حقا كما تعتقد «ريم» وأنك الحياة بالنسبة لها، فلا تستطيع العيش دونك، فلن يكون بوسع إنسان غيرك إنقاذها مما هي فيه.. فكلمة حب صادقة أفضل من ألف دواء.

وتقدم الاب نحو حجرة ابنته. وتبعه «عادل» وهو يجاهد

لكي لا يطلق آهة ألم حبيسة أوشكت أن تنفجر من صدره لكلام الاب الحزين..

إن كان صادقا حقا في حبه لـ « ريم » فليثبت ذلك.

وما أقساه في اختبار تتوقف عليه حياة حبيبة قلبه..

وعندما خطا إلى داخل حجرتها أوشك أن ينهار.. أن ينفجر باكيا.. أن يسقط من حالق..

كانت « ريم » ممددة فوق فراشها. وعيناها مغلقتان ووعيها مفقود، وقد حاكى وجهها وجوه الموتى، وبدا بدنها تحت الملاءة الكبيرة هزيلا عليلا وقد فقدت نصف وزنها خلال الأيام القليلة السابقة.. وكانت هناك إبرة مغروسة في ذراعها يمتد خرطومها إلى زجاجة محلول سكري معلقة فوق حامل لتغذيتها وهي غائبة عن العالم، وإلى جوارها ممرضة غادرت الحجرة عند رؤيتها له.

تقدم « عادل » نحو « ريم ».. جلس فوق طرف فراشها.. أحس بالشلل يطبق عليه.. كأنه موشك على غيبوبة..

وأفاق على دموعه الساخنة التي أغرقت وجنتيه.. ثم سقطت منهما فوق كفي « ريم » المستسلمتين للمرض وعدم الرغبة في الحياة..

وأمسكت أصابعه الخشنة بأصابعها الرقيقة الهزيلة.. رفع أصابعها إلى شفتيه وقبلها.. كأنه يمنحها قبلة الحياة..

وهمس يقول لها: لا يمكنك أن تتركيني أيتها الحبيبة.. لا أحتمل الحياة بدونك أبدا.. صدقيني.. كانت حياتي بلا معنى بدونك.. كنت أحيا وأعيش وكأنني أؤدي واجبا بلا هدف.. وبعد أن صادفتك تغيرت حياتي كلها.. صار لها هدف.. وكنت أنت الهدف.. أصبح يومي لا يبدأ إلا بك.. وينتهي متى غبت عن بصري.. صرت أنت مكان القلب عندي.. وصارت حروف اسمك هي كل عالمي وحدود أسراري.

ومسح دموعه بكفيه مواصلا: لو كنت أعلم أنني سأتسبب لك في هذه المحنة لا ختفيت من حياتك من قبل ظهوري.. لسجنت نفسي في أقصى بقاع الأرض كي لا أسعى صوبك.. لمزقت قلبي ووأدت مشاعري.. صدقيني لقد حاولت أن أفعل ذلك بالفعل فعندما شعرت بدبيب الحب يتسلل إلى قلبي وأنت تزورينني في المستشفى خشيت أن تتطور علاقتنا فيتهمني إنسان ما، بأنني ما سعيت لك إلا لأجل ثروة أبيك وشهرتك.. ولهذا قسوت على قلبي وحاولت الهروب بعيدا عنك.. ذهبت إلى

قريتي هربا منك، ولكني لم أستطع احتمال فراقك طويلا فعدت لأراك في نفس اللحظة التي جئت فيها لترينني.. وكأن قلبينا كانا يتناديان في نفس اللحظة، وكل منهما لبى النداء في اللحظة ذاتها.. وفي حياتي كلها لم أشعر بضعفي أمام إنسان أو أظهره أبدا.. ولكن هأنذا أكشف لك كل خلجات قلبي ومشاعري دون خجل.. لأنك أنت وحدك الحبيبة وأنت وحدك المبتدأ والمنتهى..

فإن كنت أخاطر بحياتي لإنقاذ من لا أعرفهم، فكيف الحال بمن أحب، ومن ملكت قلبي وعقلي.

ولكن الجسد الراقد أمامه لم يبد أي علامة على الحياة، ونكس «عادل» رأسه بمرارة قاتلة وهمس يقول:

ـ أرجوك أيتها الحبيبة أجيبيني.. إمنحيني سببا يسيرا لأستمر في الحياة.. لأكافح وأناضل لأجل أن أبقى في هذا العالم.. فبصمتك هذا تخرس كل الألسنة في أذني ويتوقف حتى نبض قلبي، فلا تتركيني أموت وأنا حي.. ولا تضنّي علي بإشارة يسيرة منك، تدلني على أنك تسمعين وتعين.. وأن قلبك لا يزال راغبا في الحياة، لأجل كل الذين يحبونك ولا يستطيعون الحياة بدونك.

وأغمض عادل عينيه وهو يشاهد العينين المغلقتين أمامه لا

ترمشـان.. وأنفاس محبوبته توشـك أن تتوقف فأحـس كأنـه يدنو إلى الموت أيضاً، وأنه لم يعد هناك سبب يربطه بالحياة.

ولكـن الأصـابع الرقـيـقـة الهـزيلة تحـركـت ببطء.. في وهن.. تحركت الأصابع كأنما دبت فيها الحياة.. وكأنها تقاوم المرض والألم واليأس.. وكأنما تدفقت في عروقها قوة جديدة.

تحركت الأصابع لتستقر فوق كفي «عادل» المضمومتين في ألم وقسوة.. وكأنها تمسح عنه كل آلامه.

لـم يصدق «عادل» عينيه واستدار صوب «ريم»..

كانت عيناها مفتوحتين، وهي تحدق فيه وفوق شفتيها ابتسامة هزيلة شاحبة.. ابتسامة الرغبة في الحياة..

وصاح «عادل» وهو لا يصدق ما يراه..

وفي مدخل الحجرة بدا الأب والأم واقفين يشاهدان ما يجري أمامهما وكل خلجة في جسديهما ترتعد..

ثم تلاقت نظراتهما في راحة عميقة..

لقد أثبت «عادل» صدق حبه لابنتهما.. وصار من المستحيل أن يفرقهما إنسان بعد تلك اللحظة.

* * *

البطل

أقبلت الحائكة بفستان الزفاف ووضعته أمام والدة « ريم » قائلة بابتسامة عريضة: زفاف مبارك إن شاء الله.

أجابتها الأم بابتسامة عريضة:

-شكرا لك.. أنت مدعوة مع زوجك وأبنائك لحفل الزفاف غدا بإذن الله.

-إن شاء الله.. لقد أنجزت هذا الفستان بسرعة قياسية.. فأنتم لم تتركوا لي مهلة أكثر من أسبوع واحد، فتركت كل أعمالي وتفرغت له.

-إن الظروف هي التي حتمت ذلك، وما كان يهمنا هو أن « ريم » غادرت فراش مرضها، فأردنا أن نفرح بها سريعا.

بدا شيء من القلق على وجه الحائكة وهمست تقول للأم: لماذا لا تذهبين لعتاب والدة « سامح » إبن صديقتك « كريمان »،

إنه يتقول في كل مكان بالنادي على عريس ابنتك ويقول عنه إنه من أصل وضيع، وإنه لم يتقدم لطلب يدها إلا طمعا في ثروة والدها، ولم يدع إنساناً لم يخبره بذلك في كل مكان يذهب إليه.

بدا شيء من الحزن على وجه الأم وقالت: إن كان هذا ما يفعله ابن الأصول، فالحمد لله أن «ريم» لم تتزوجه، وحقيقة الأمر أن غضبه لرفض «ريم» الزواج منه، هو الذي يدفعه لقول ذلك.

وشاهدت «ريم» قادمة فهمست الأم تقول للخياطة: لا تخبريها بأمر ما يقوله «سامح»، فلا أريد أن تسمع ما يؤلمها، فقد نالت من الألم ما يكفيها.

أومأت الخياطة برأسها، وأقبلت «ريم» وقد استعادت شيئا من حيويتها ورونقها.. غير أن بعض آثار المرض كانت لا تزال واضحة عليها فاحتضنتها الخياطة وقبلتها وهي تقول لها: زفاف مبارك إن شاء الله يا ابنتي.

أجابتها «ريم» بابتسامة شاحبة واهنة:

ـ شكرا لك. وتأملت فستان الزفاف الأبيض وتحسسته برقة، وهمست تقول لأمها: سأذهب لقياسه في حجرتي.

واتجهت إلى حجرتها وارتدت الفستان.. ووقفت تتأمل نفسها في المرآة..

وتمنت لو كان «عادل» إلى جوارها في تلك اللحظة.. ودق قلبها سريعا لهذا الخاطر وتلهفت لسماع صوته..

وامتدت أصابعها تدير رقم هاتف مكتبه في قسم الشرطة..

وجاءها صوته منسابا في عذوبة ورقة، فهمست تقول له بصوت باسم واهن: لا أدري أي عريس أنت.. غدا زواجك وأنت لا تزال في مكتبك تمارس عملك.

وجاءها صوته سعيدا بسماع صوتها:

ـ هناك مهمة صغيرة سأذهب لتأديتها ثم تبدأ إجازتي منذ منتصف الليلة ولمدة أسبوع كامل، لن يشغلني فيها شيء عنك.

همست تقول له في تقدير عميق:

ـ أريد أن أشكرك على شيء.

تساءل بلهفة:

ـ وما هو؟

تورد وجهها وغادرها شحوبها وهي تقول: لقد تضاعف إعزازي وتقديري لك، لأنك رفضت عرض والدي أن تقيم معه في «الفيلا»، أو أن يشتري لنا شقة تمليك نتزوج فيها وأصررت على أن نتزوج في شقتك الصغيرة المتواضعة التي تسلمتها من ادارة الشرطة.

أجابها في صدق وإخلاص:

ـ إنني أحاول أن أقطع الطريق على من يقولون إنني ما تزوجتك الا طمعا في ثروتك.

عضت شفتها السفلى ألما وهمست تقول له:

ـ وهل وصلتك هذه الأقوال أيضا؟

جاء صوته يفيض رجولة وهو يقول:

طبعا.. وحتى دون أن أسمعها.. فما كنت لأسمح لنفسي أن أتزوج الفتاة التي اختارها قلبي، بمال أبيها.

احتضنت سماعة الهاتف برقة وهي تقول:

ـ لا أدري كيف سأحبك أكثر من ذلك.. فأنا أشعر الآن أن حبي لك قد فاض وامتلأ به قلبي وكياني ولم يعد يحتمل المزيد.

أجابها في صدق:

- ولكني تعلمت أن أحبك كل يوم أكثر من اليوم السابق.. فقلبي تغزوه كل يوم مشاعر جديدة، وأشعر كأنني أولد كل يوم من جديد، عند سماع صوتك ورؤيتك.

مرت لحظة صمت.. فهمس يسألها: «ريم».. ماذا تفعلين؟

- أنصت إلى صوت أنفاسك.

أجابها ضاحكا: لا وقت لذلك، فقد حان موعد مهمتي الأخيرة قبل الإجازة.

-هل هي هامة؟

-لا.. مجرد مهمة روتينية، لا تشغلي نفسك بها.. سأراك غدا.

-بإذن الله.. مع السلامة.

ووضعت «ريم» السماعة وقلبها يدق في عنف.

كان ثمة إحساس بالخطر والتوتر يعصفان بها ولا تدري لهما سببا.. تضاعف خوفها على «عادل» وخشيتها عليه، انفجر القلق العاصف في قلبها فجأة.. وتمنت لو كانت إلى جواره..

تحميه تذود عنه.. تضحي بحياتها لأجله.

وعندما رفعت السماعة تطلبه مرة أخرى.. راح هاتفه يدق بلا انقطاع ولا مجيب..

ولم تكن مهمة «عادل» روتينية حقا كما أخبر «ريم»..

كانت مهمته القبض على إرهابي هارب يقيم في أحد الأحياء الشعبية المكتظة بالسكان..

كانت مهمة خطرة.. فالمجرم الهارب ارتكب أكثر من حادث قتل بالرصاص والقنابل.. وكان الحذر مطلوبا..

ولكن المفاجأة كانت في صالح رجال الشرطة بكل تأكيد..

وفي خفة تسلل «عادل» مع ثلاثة من زملائه ليحيطوا بالمنزل النائي المتطرف..

وكانت مهمة «عادل» هي اقتحام وكر الإرهابي..

وقبضت أصابعه على مسدس، وبركلة واحدة حطم الباب، واندفع داخل المنزل المعتم إلا من لمبة شاحبة في الصالة.

وفي الحال وقع بصر «عادل» على عدد من الأطفال وقد انكمشوا في ذعر بأحد أركان الصالة وقد فاجأهم اقتحام المكان.. ولم يكن من شك أنهم أبناء الإرهابي..

أما والدهم فكان واقفا في نهاية الصالة وقد تسلح بقنبلة يدوية في يده، وقد بدا واضحا أن الاقتحام لم يكن مفاجأة له..

وصاح «عادل» في الإرهابي: استسلم فلا ينالك سوء حتى لا يصاب أطفالك من تراشق الرصاص.

ولكن الإرهابي انتزع فتيل قنبلته وألقاها على الأرض صوب «عادل».. ولكن القنبلة اصطدمت بساق أحد المقاعد وانحرفت نحو الأطفال الصغار المنكمشين في ركن الصالة..

واتسعت عينا «عادل» من المفاجأة المباغتة..

لم يكن الوقت يتسع لأي تصرف وقد قفز الإرهابي هاربا غير عابئ بما سيحدث لأطفاله..

وكان الاختيار الوحيد أمام «عادل».. إما حياته هو أو حياة الأطفال الصغار الأبرياء ودون تردد اختار «عادل» ما أملاه عليه ضميره..

وقفز فوق القنبلة ليغطيها بجسده فيحمي الأطفال الأبرياء من انفجارها..

وانفجرت القنبلة في صوت مدوٍّ في اللحظة التالية.

عروس الأحزان

سقطت السماعة من يد «ريم».. اتسعت عيناها عن أخرهما وشل لسانها وتوقف قلبها، من الخفقان.

مستحيل أن تصدق ما سمعته.. مستحيل.. مستحيل..

وأطلقت صرخة مجنونة ملتاعة.. كأنها تشكو إلى الله ظلم الإنسان لأخيه الإنسان..

واندفع والدها وأمها إليها.

وانهارت «ريم» بين ذراعي والدها لا تستطيع الوقوف على قدميها..

وراحت تصرخ وتهذي كالمجنونة بما نقله إليها الهاتف..

لم يشأ «عادل» إلا أن يموت بطلا..

مات لينقذ أطفالاً أبرياء لا ذنب لهم إلا أن والدهم مجرم وغد بلا قلب..

مات « عادل » ليقدم نموذجا للتسامح لا مثيل له . .

لم يهرب . . لم يجبن . . لم يفعل كالآخرين . .

مات ليثبت أنه لم يكن طامعا في مال أو أشياء فانية . . ليخرس « سامح » وأمثاله . .

مات لأنه لا مكان لأمثاله في هذا العالم المليء بالشرور . .

مات « عادل » ونجا أطفال الإرهابي . . الذي سقط قتيلا بعد ذلك برصاص الشرطة . . ولكنه لم يشأ السقوط قبل أن يغتال روحا بريئة سمت عن كل متاع الدنيا وقدَّمت المثل في التضحية . .

وكفت « ريم » عن الصراخ والبكاء لأن قلبها لم يعد يحتمل وتهاوت بين ذراعي والدها .

وعندما فتحت عينيها كان نور الشمس يتسلل من نافذة حجرتها وقد انتصف النهار . . ولكن أنى للنور مهما كان أن يضيء من ظلام قلبها الذي سكنته الأحزان والجراح للأبد . .

كان والداها جالسين إلى جوارها وقد قضيا الليل ساهرين . . وإلى جوارهما طبيب راح يقيس نبضها . .

وهمس الطبيب في ارتياح : الحمد لله . . لقد أفاقت .

لم تع «ريم» ما قاله الطبيب.. ووقع بصرها على فستان زفافها الأبيض في ركن الحجرة.. وأحست أنه صار له لون الدم.. دماء «عادل».. اصطبغ الفستان بلون الدماء وصار من المستحيل إزالته..

لم تبك.. لم تذرف عيناها دمعة واحدة..

الأبطال أسمى من أن نبكيهم.. أنبل من أن نودعهم بدموعنا.. أعظم من أن نذكرهم بالصراخ والعويل وآهات الألم والتحسر.

واندفع والدها والدموع في عينيه قائلا: لقد أفقت أخيرا يا ابنتي.

واحتضنتها أمها باكية قائلة: أي قدر قاس يفعل ذلك بك يا ابنتي؟

تحركت شفتا «ريم» في همس عميق كأنه صادر عن بئر لا قرار لها:

ـ لا أريد أي كلمات رثاء ولا حتى دمعة حزن واحدة.. لقد عاش «عادل» ومات بطلا.. والأبطال ليسوا في حاجة لدموع للذكرى.

ترامق الأب والأم في صمت ولوعة وهما يجاهدان ليكبتا آلامهما ودموعهما. وأدارت «ريم» عينيها صوب أبيها هامسة في صوت عميق بلا روح: متى ستخرج جنازة «عادل» يا أبي؟

أجابها الأب في صوت مفجوع:

ـ اليوم يا ابنتي. بعد ساعات ستتم الصلاة على جثمانه في جنازة عسكرية ضخمة ستحضرها قيادات الشرطة والوزارات الأخرى.

شردت عينا «ريم» في فضاء لا حدود له وهي تقول:

ـ إذن يجب أن أستعد لحضور الجنازة.

هتفت الأم في انزعاج وخوف:

ـ ماذا.. إن صحتك لا تتحمل و..

وقاطعها صوت «ريم» ولهجتها الحادة كنصل سيف:

ـ لن يمنعني شيء عن الوداع الأخير لـ«عادل».. ولو كان الموت ذاته.

تبادل الأب النظرات مع الطبيب الذي أومأ برأسه موافقاً

وقالت الأم باكية: ولكنك لا تملكين ثوبا أسود للجنازة يا ابنتي لتودعي به عريسك إلى مثواه الأخير.

طافت ابتسامة ملائكية ذابلة فوق شفتي «ريم» وهي تقول:

ـ من قال إنني أريد ثوبا أسود.. وهل ترتدي العروس ثوبا أسود يوم زفافها؟

غمغم والدها في حيرة:

ـ ماذا تعنين يا ابنتي.. لست أفهم ما تقصدين.

رمقته «ريم» بنظرة لا تشي بشيء مما يدور في قلبها، وهمست تجيبه:

ـ ستفهم بعد قليل يا أبي.. والآن أرجوكم دعوني أغير ملابسي فلا وقت لنفقده.

وعندما غادرت «ريم» حجرتها شهق والداها وقد أصابهما الذهول وهما يراقبان ابنتهما..

كانت «ريم» في ثوب زفافها الأبيض.. وتاج العروس فوق رأسها..

كانت ذاهبة لتزف عريسها للموت بفستان زفافها الناصع

البياض كالفجر الوليد كأنها تعقد قرانها على حبيبها بعد أن غادر هذا العالم.. تزف نفسها له رغما عن القدر وأصابع الغدر.

كأنها تعده ألا ترتدي هذا الفستان إلا له وحده.. فلا رجل بعده في العالم يستحق أن ترتديه لأجله.

لقد صارت عروساً للأحزان..

كان هذا هو قدرها..

وهي لا تخون قدرها أبدا أو تهرب منه.. إلى أن تحين ساعة اللقاء الحقيقية بالحبيب الراحل.. في عالم آخر.. لا يعرف الحقد او الكراهية أو البغضاء.

* * *

عروس الأحزان

كانت «ريم» مذيعة تليفزيونية جميلة وشهيرة جدا.. تنتمي جذورها إلى عائلة ثرية، ويتهافت على طلب يدها عشرات الشبان.

ولكن قلبها لم يدق إلا لـ«عادل».. ضابط الشرطة الذي اعتاد أن يحمل روحه فوق كفه في كل مهمة يقوم بها..

وشاء القدر أن تكون «ريم» عروساً للأحزان عندما سلب منها أعز ما تملك.. فكيف تغ
على أحزانها؟

دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان